عقيدة الأقليات المسلمة

لعله لا يفهم من هذا العنوان أن هناك اتجاهاً جديداً استأثرت به الأقليات المسلمة في العالم وخاصة في القارتين أوروبا وأمريكا اللتين حوتا ـ وتحويان ـ مجموعات متباينة من حيث الخلفية الاعتقادية من المسلمين. في أمريكا كان شاب من الهند يرتاد المركز الإسلامي في مدينة كبيرة يصلي فيه الجمعة ويحضر جلسات علمية أيام السبت والأحد ويُقرأ فيها كتاب الله ثم يُفسر ثم تكون حلقات في السيرة والفقه والعقيدة وغيرها. عندما قرب رحيل هذا الشاب إلى بلاده لزيارة أهله والدخول في حياة زوجية طرح مشكلة حيَّرته كثيراً وهي أنّه بعد أن اكتسب حصانة عقدية سيجبره أهله هناك على زيارة ضريح من أضرحة الأولياء نوعاً من الفرض عليه وقد عاد من ديار كلها كفر وفساد. فيعلن أمام هذا الضريح تجديد توبته إلى الله(!).

يقول صاحبنا إنه لو رفض زيارة هذا «المزار» لاتهمه أهله بالكفر، ولو حاول إقناعهم بفساد هذا المنهج لحكموا عليه بأنه قد جاء بدين جديد وقد أفسدت أمريكا عقيدته: كان يقول هذا في منتهى الجدية ولا يملك الأمر في إقناع والديه بعدم جدوى هذا الأسلوب، فقد رسخ في أذهانهم وصار جزءاً من عبادة الله والتقرب إليه وقد ورثوه كابراً عن كابر.

ويحدثنا بعض المقيمين المسلمين من عرب شمال إفريقيا الذين تركوا ديارهم سعياً وراء لقمة العيش أنهم إن لم يستفيدوا من مقامهم في أوروبا إلا صلاح العقيدة لكان ذلك كافياً في أن يهون عليهم ويلات الغربة والبعد عن الأرض والأهل. بل إن البعض يذكر أنه إنما جاء إلى أوروبا ليمكث فيها سنين لا تصل إلى الخمس لينتهي به المقام إلى أن تصل به السنون إلى خمس وعشرين ويطمع في المزيد. يذكر هذا الرجل ـ وكثيرون معه ـ أنهم إنما تعرفوا على الإسلام على حقيقته خالياً من البدع والخرافات؛ لأنهم نهلوا معرفتهم الجديدة للإسلام عن طريق المراكز الإسلامية هناك. أما الأولاد فيتسابقون في حفظ كتاب الله وتجويده حتى أنّه لينتابك شعور طيب وأنت تسمع إلى قراءة أحدهم وقد لا يبلغ العاشرة من عمره فتحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن قيض لهؤلاء من يعلمهم أمور دينهم ويعقد معهم الجلسات تلو الجلسات، خاصة أنهم جيل من آباء لم ينالوا حظاً من التعليم المنهجي، ولم يحصلوا على شهادات دراسية تعينهم ـ بعد الله ـ على تحسس خطواتهم ومصير أبنائهم، ولكنها الفطرة التي تجددت فيهم.

والحق أن سلامة العقيدة لا تقتصر على أولئك المسلمين الذين ينحدرون من سلالات مسلمة طرأ على عقيدتها شيء من الخلل، سواء عن طريق المزارات والأضرحة، أو عن طريق الخلل في أساليب العبادة عموماً والصلاة والصوم والحج على وجه الخصوص، ولكن سلامة العقيدة انعكست على أولئك الذين دخلوا حديثاً في الإسلام فوفقهم الله إلى مصادر «صافية» نقلت لهم دين الله صافياً من كل غبش، وصاروا ينظرون إلى أي حركة في العبادات والمعاملات وأي تصرف فيهما ويعرضونه على ميزان البدعة، فما ثبت فيه أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ لم يطرقوه تركوه وعدوه من

البدعة الضلالة، وصفاء العقيدة هذا كان له أكثر الأثر في إقدام البعض على إعلان الشهادتين.

ولعل هذا الحديث لا يعطي الانطباع أن العمل الإسلامي بين الأقليات المسلمة صاف كل الصفاء، فهناك القاديانية والبهائية والأحمدية والرافضة قد ضربت بأطنابها هناك ولاقت ـ وتلاقي ـ دعماً من أياد خفية خلفية، ولها مراكزها ولها منشوراتها، ولكنها في مجمل نشاطها مقتصرة على أولئك الذين يرفضون رفضاً قطعياً البحث عن الحكمة وكأنهم آثروا أن يدافعوا عن معتقدهم ولو كان باطلاً في قرارة أنفسهم فاتسم منهجهم بالعناد والمكابرة والمراء، حتى يكاد البعض ييأس من نقاشهم والدخول معهم في حديث مثمر. هؤلاء موجودون، ولكن أتباعهم ـ بفضل من الله ـ محدودون، بل إن هناك من أتباعهم من يعلن رفض ما يأتون به حين يتبين لهم عن طريق النقاش والمجادلة بالتي هي أحسن أن ما هم عليه هو عين الباطل.

يحدثني أحد الذين عادوا بعد ضلال طويل أنه عاد عن طريق الأحمدية، ولكنه لم يقبل كل شيء على علاته فأصبح يزن الأمور بميزان العقل والنقل خاصة عندما واجهوه في مسألة النبوة وفكرة ختمها عند محمد ﷺ، يقول إنهم لم يصرحوا له بخلاف ذلك لقرب عهده بهم، ولكنهم بدأوا يلحون عليه مما جعله يطيل التفكير في منهجه الجديد الذي يريد من ورائه العودة إلى الله ـ تعالى ـ فحري به أن يعود إليه فلا يخرج من ضلال إلى أضل منه، فاتصل بالمركز الإسلامي في مدينته وصار يتردد عليه ويجالس القائمين عليه جلسات طويلة يعرضون عليه الحق بحكمة وهدوء، حتى ضرب بأولئك عرض الحائط بعد أن تعرف على عقيدتهم وأساليبهم في التضليل ليصل به هذا التعرف إلى أن يقترح عليه أحد القائمين على المراكز الإسلامية بكتابة ما واجهه ليصدر في مقالة تنشر

لعدد غير قليل من الناس، ولكنه منهمك هذه الأيام بالتعرف أكثر على دين الله وتربية أولاده ـ وأمهم لا تزال على دين قومها ـ تربية إسلامية حقة بعد أن تعرض ولده لأساليب الأحمدية التي تعرض لها هو، فهو في سبيل إخراج ابنه من هذه الزلة.

والذين يترددون على المساجد والمراكز الإسلامية هناك يدركون أن مستقبل الإسلام في أوروبا وأمريكا يبشر بخير من حيث العدد ومن حيث الصفاء في العقيدة. ويدركون أيضاً أن هناك أقواماً آثروا الضلالة على الهدى فنسوا الله فأنساهم أنفسهم. وهؤلاء لم يُتركوا ولكن يد الخير تمتد إليهم بين فترة وأخرى. وهم أيضاً ينظرون إلى المساجد والمراكز نظرة خاصة، فهم مع ضلالهم وانحرافهم في العقيدة والعبادات والخلق لا يزال لديهم بقية من أمل في العودة، يتضح ذلك عندما يشب أبناؤهم على لغة غير لغتهم فيحاولون تعليم الأبناء لغة القرآن، ولكنهم لا يملكون الوقت وهم قد أصبحوا يعبدون الوقت، فيبحثون عن المخرج فيجدونه في المراكز الإسلامية التي تقدم دروساً في القرآن ولغة القرآن في أيام لا تتعارض مع دراسة الأطفال فينخرط الأبناء في هذه المراكز لتعلم اللغة بادىء ذي بدء، ولكن تعلم اللغة في المراكز إنما يراد من ورائه خدمة كتاب الله ـ تعالى ـ لذلك تُستقى أساليب التدريس من هذا المعين الصافي فيجد الطفل نفسه أمام ظاهرة لم يتعرف عليها من قبل، ثم يبدأ النور يدب فيه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ترى الأب يحضر ابنه ثم يعود لأخذه بعد نهاية الدرس دون أن يدخل المركز ويحادث القائمين عليه، ولكن العلاقة لا تدوم على هذا الحال، إذ لا يلبث الأب أن يدخل ليسأل عن مسيرة ابنه في التعلم، فيجد رجالاً تعلوهم السماحة ويرفرف عليهم الهدوء وينير وجوههم الإيمان، فيخرج بانطباعة جديدة لا تلبث أن تتمكن في نفسه مع مرور الأيام وتكرار الزيارات وتتطور إلى تحية المسجد ـ مع

أن الرجل لا يصلي مطلقاً ـ وتحية المسجد تجر إلى إقامة الصلاة وحضور خطبة الجمعة والاستفادة من بعض الكتب، ثم صلاة العيدين وما فيهما من جمع غفير يكاد لا يصدقه من لم يره من قبل، كل هذه تجذب هذا الرجل إلى طريق الحق، فلا يلبث أن يعود إلى الله تعالى عودة صافية خالية من بعض الموروثات والمخلفات التي كانت ـ ربما ـ سبباً في بعده، أو عاملاً من العوامل التي شجعته على البعد عن دين الله، فيكون الابن سبباً في هداية أبيه ليصر الأب بعد ذلك على ألا يكرر التجربة التي مر بها في شخص ابنه.

«المسلمون» العدد السابع والتسعون
١٢ ـ ١٨ ربيع الآخر ١٤٠٧ هـ/ ١٣ ـ ١٩ ديسمبر ١٩٨٦ م

عمرُ.. يجمع أهل بَدْر..

ـ ١ ـ

تبرز لدى الجاليات المسلمة «الأقليات» المسلمة في بلاد غير المسلمين ظاهرة تتعلق بالتسرع في إصدار الأحكام الشرعية على حوادث تحصل، ويحتاج المسلم إلى معرفة حكمها. فيتصدر للفتيا رجال قد لا يملكون خلفية قوية في الشريعة وفقه الإسلام إلا ما لديهم من ثقافة عامة «فكرية» عن أمور عمومية في الإسلام، كالذي نقرأه لدى مجموعة غير يسيرة من الكتاب الإسلاميين ومحاولتهم رصد الحكمة من الأشياء سعياً وراء الترغيب فيها وتقريبها من القبول، أو دفاعاً عن شبهة ألصقت بها من قبل قوم آخرين عن قصد في كثير من الأحيان وعن غير قصد في بعض الأحيان.

ويعزى هذا الأمر في كثير من الأحوال إلى افتقار هذه المجتمعات إلى علماء الشرع المتمكنين الذين تهيأت لهم ظروف الدرس والتتلمذ على علماء آخرين أفذاذ وعايشوا الوقت والعصر فانطلقت فتاواهم مستمدة من مصادر الشريعة المعتمدة ومتمشية مع الواقع حتى ولو كان هذا الواقع ضيقاً من حيث المكان معزولاً عن الآخرين، وهذا كله مع التحفظ العام على إصدار أي حكم إذا كان في المسألة المسؤول عنها أي التباس أو عدم وضوح لدى المسؤول أو عدم إيضاح من السائل.

ـ ٢ ـ

وأمر الفتوى أمر غير يسير، ولها رجالها العالمون وليس في الإسلام كهنوت، ولكن في الإسلام علم ورجال علم، وللفتوى مؤهلات لا بد من توافرها كلها في المتصدر للفتوى وهي ما تسمى بشروط الفتوى، وينكر أشد الإنكار على من يفتي بغير علم، أو يجعل رأيه مقياساً في إصدار الأحكام. جاء رجل مسلم إلى مسؤول في أحد المراكز الإسلامية في إحدى البلاد الأجنبية وسأله عن حكم «سرطان البحر» فأفتاه بأنه حرام! وأحس المفتي بأنه قد تسرع ولكن السائل قد أخذ الحكم منه وانصرف، لكن المفتي لم يلبث أن سأل أحد العارفين عن الحكم وأخبره أنه أفتى السائل بحرمته، فسأل المسؤول الأخير عن السر في تحريمه فقال المفتي بأنه لا يميل إلى سرطان البحر ولذا حرَّمه!! وعلى هذا المنوال قد تصدر الأحكام والفتاوى بالرأي، أو ربما أحياناً بالمزاج في بعض تلك البلدان التي يوجد بها أقليات إسلامية، وينقصهم العلماء العارفون بالأحكام الشرعية وقد وردت نصوص بتحريم فتوى الجاهل.

ـ ٣ ـ

والمفتي بغير علم مثل من يدل الركب وهو لا يعلم الطريق! ومن يزاول الطب ولا معرفة له به، بل هو أسوأ حالاً من هؤلاء كلهم ـ كما يشير فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتاب له صدر عن دار الصحوة للنشر بالقاهرة وعنوانه «الفتوى بين الانضباط والتسيب»، وقد أخذت البلاد الإسلامية منع من يفتي بغير علم، وقد فعل هذا بنو أمية فمنعوا طائفة ممن تصدروا للفتيا بغير علم ولا سلطان مبين. ويطلب «أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ أن يحجر على المفتي الجاهل والمتلاعب بأحكام الشرع».

وقد رئي «ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن» شيخ الإمام مالك بن أنس يبكي فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: استفتي من لا علم له وظهر في الإسلام

أمر عظيم! قال: ولبعض من يفتي هٰهنا أحقُّ بالسجن من السَّراق!. ويؤثر عن «ابن مسعود» ـ رضي الله عنه ـ قوله: والله إن الذي يفتي الناس في كل مسألة لمجنون. كما يؤثر عنه ـ رضي الله عنه ـ قوله: نحن في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه، ويقول غير واحد من السلف: إن أحدهم يفتي في المسألة لو عرضت على عمر لجمع لها أهل بدر! وقد كان السلف يتورعون عن الفتوى وينهون عن العجلة فيها.

ـ ٤ ـ

واشترط أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ على من يريد التصدر للفتيا بالإضافة إلى العلم بكتاب الله علماً جامعاً والعلم بالسنن والأسانيد، اشترط معرفة المفتي بأقوال الفقهاء والمجتهدين، وسأله أحدهم: إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث (١٠٠,٠٠٠) يكون فقيهاً؟ قال: لا، قال: فمائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠)؟، قال: لا، قال: فثلاثمائة ألف حديث (٣٠٠,٠٠٠)؟ قال: لا، قال: فأربعمائة ألف (٤٠٠,٠٠٠)؟ قال بيده هكذا وحركها. والفئة التي نحن بصدد الحديث عنها في بعض البلاد الإسلامية أو تلك البلدان التي يوجد بها أقليات إسلامية لا يكاد الواحد منها يقيم حديثاً واحداً نصاً وسنداً، ويلجأ إلى «ما معناه»، ومع هذا تجده يفتي في الأمور الكبار وهو لا علم له بالأصول، ناهيك عن الفروع. ونحن في زمان يكاد الحفظ فيه يتلاشى من الصدور ويعتمد اعتماداً كبيراً على المكتوب أو المطبوع، وتظهر الدعوات التي تقلل من شأن الحفظ وتدعو إلى نبذه والاستعاضة عنه بالفهم، وكأن الحفظ قد ارتبط دائماً بعدم الفهم، ويعيبون على أصحاب الملكات في الحفظ ويتهمونهم في قدراتهم الذهنية والإدراكية.

ويؤثر عن «ابن حنبل» ـ رحمه الله ـ قوله: «إن على من ينصب نفسه

للفتيا أن يكون ذا خصال خمس مجتمعة وهي: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور، وأن يكون له حلم ووقار وسكينة، وأن يكون قوياً على ما هو فيه وعلى معرفته، والكفاية (من العيش) وإلا مضغه الناس، ومعرفة الناس.

ومعرفته للناس ربط بين العلم والواقع، فالأمر هنا مناط بالتطبيق وليس مجرد «كلام نظري» عابر، ولذا يجب أن تراعى في الفتوى أمور معينة، ولعل هذا سبب من أسباب تعدد إجابات العلماء حول مسألة واحدة، وفي هذا تيسير على الناس، فقد يفوت على البشر إدراك كل الظروف المحيطة بالمسألة، وقد يتوسع آخرون من خلال «تشخيص» المسألة مع السائل، رغم أن بعض العلماء لا يحبذ تكرار السؤال من قبل سائل واحد على أكثر من عالم إلا أن يواجه العالم الأول السائل بسؤال فلان من العلماء تورعاً منه، وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون، فيسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول، وما منهم من أحد يحدث بحديث أو يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه!

ـ ٥ ـ

والفتوى نظرة موضوعية حول مشكلة تحل لا تتدخل في إصدارها الأهواء والأغراض، أو التقرب من عزيز، أو الإجحاف على بعيد، أو التهاون مع قريب، أو محاولة مسايرة تيار طغى على مجتمع من المجتمعات في فترة من الفترات، إذ الملاحظ أن الفتوى تبقى ويرجع إليها الناس بعد زمان، ونحن لا نزل نرجع إلى مجموع الفتاوى «لابن تيمية» ـ رحمه الله ـ رغم أنه كان في عصر غير عصرنا هذا، ونعتبرها مرجعاً نعود إليه عند النظر في مسألة من المسائل، ومن هنا وجبت موضوعية الفتيا، وكان «ابن تيمية» قوياً في هذا عرفت فيه النزاهة

والتجرد. وهناك فتاوى أخرى لعلماء مضوا وأبقوا علماً نافعاً يشفع لهم يوم القيامة فوضعوا معالم على الطريق أعانت المهتدين وطالبي العلم.

٦ ـ فئات أخرى

على أن هناك فئة ممن تلقوا العلم وأدركوا شيئاً من كنهه وتصدروا للفتيا في زمان برزت فيه مجموعة من عوامل الغزو الفكري الذي انقاد البعض له بسبب احتقار للذات وتصغير لها، أو طلباً للتكسب، أو للتقريب إلى القادمين من بعيد، ونحن ندرك أن العالم الإسلامي تعرض لموجة من الاحتلال الأجنبي عمت معظم أرجائه.. وعمل الاحتلال على تقريب نفر من «العلماء» في تلك البلدان واستصدر منهم فتاوى تتعلق بالتعامل مع المحتل، وكان أبرزها وضوحاً محاولات المحتل «نسخ» فريضة الجهاد؛ لأنها تهدد وجوده، وقصر الجهاد على «الدفاع عن النفس» رغبة في الحد من التوسع الإسلامي، وكان هناك من تجرأ وأصدر الأحكام المناسبة، بل ظهرت في بعض بلاد المسلمين «الفرق» التي آزرت الاحتلال وقضت على مصطلح «الجهاد» في الفكر والفقه الإسلامي، فكان أن لقيت كل دعم وتشجيع من أولئك المحتلين، فقد خدم هؤلاء أغراض المحتل بأجمل مما يخدمها هذا الوافد من بعيد.

ومثل هذه واضحة في بعض إجراءات تلك البلدان تصدى لها **﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾** [الأحزاب ٢٣]. ونبهوا لها ووقفوا وقفات مشهورة أمام التيارات الزاحفة من أفكار دخيلة وغزو مشهود وهجوم فكري متواصل عبر قوانين وضعية تخالف الشريعة. ولم تقتصر وقفاتهم على الامتناع عن الفتيا لمصلحة أولئك ورفضهم التقرب منهم، بل تعدوا هذا إلى التنبيه لهذه الأخطار، فكانوا بهذا من المجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا.

٧ ـ منهجان في الفتيا

والذي يتصدى للفتيا يحسب لها ألف حساب قبل أن يطلقها، ولذا تجد البعض من رجال العلم في كثير من البلاد الإسلامية يحتاطون كثيراً ويلجأون إلى الجانب الذي يرون أنهم معفون فيه من المساءلة أمام الله تعالى. .

ـ ٨ ـ

وكانت هذه جولة مع إصدار من إصدارات الشيخ القرضاوي فيما يتعلق بالفتوى، كان ـ حفظه الله ـ وفيما يظهر لي موفقاً في بسطها للعامة من الناس ـ غير أهل الفتوى ـ وبهذا نفع وتقريب لروح الإسلام من القلوب. وفقه الله وأعانه وهدانا جميعاً إلى الحق والعمل به، وكان الله في عون الجميع.

الأقليات المسلمة.. والمعدومون..!

بعد أن كتبت عن بعض الصور للأقليات المسلمة في أوروبا وأمريكا، اطلعت على كتاب صدر عن سلسلة كتاب «الأمة» بعنوان «الحرمان والتخلف في ديار المسلمين لمؤلفه الدكتور نبيل صبحي الطويل في طبعته الأولى في شوال ١٤٠٤ هـ.. وكنت في مقالتي السابقة قد أكدت على حاجة الأقليات المسلمة في أوروبا وأمريكا للدعم المادي والمعنوي من رجال المسلمين وأهل الخير في بلاد الإسلام للتوسع في إنشاء المراكز الإسلامية والمدارس والمستشفيات والمكتبات وتشغيل القوى العاملة المسلمة هناك.

وفي الكتاب المذكور أعلاه وجدت المؤلف بعد أن استعرض أحوال المسلمين في بعض البلاد المسلمة مؤيداً ذلك بالتقارير والأرقام، وجدته يقول: «ما بال أقوام يوجهون جهودهم المالية في مؤسساتهم المسلمة إلى بلاد الغرب لدعم جاليات مسلمة هناك، وأكثرها مكتف مالياً وذو دخل كبير؟» ص ١٣٩، ثم يمضي الكاتب في محاولة إعطاء فكرة عن الأولويات في إنفاق أموال أهل الخير، سواء كان المنفقون أفراداً أو هيئات تخدم هذا الغرض.

ولست هنا أحاول أن أقف معارضاً لفكرة الكاتب أو ناقضاً لها،

فهو قد عمل في الميدان الصحي في مناطق المسلمين وعايش المشاكل التي يعيشها المسلمون في آسيا وإفريقيا، ولذلك فهو يدرك ما يقول بعد أن توصل إلى هذا الرأي. ولكنني هنا أريد أن أقف معه وقفة واحدة لعلها تكون نقطة لقاء بين ما يدعو إليه الكاتب في مؤلفه وبين ما يدعو إليه مجموعة من الكتاب الذين عنوا بالأقليات المسلمة في أوروبا وأمريكا، إذ إنه في الوقت الذي عايش فيه كاتبنا المشكلات التي تحدث عنها ودعا في النهاية إلى توجيه الجهد للقضاء عليها في بلاد المسلمين، في الوقت ذاته نرى أن هناك مجموعة ممن يكتبون عن الجانب الآخر قد عايشوا هم مشكلات الأقليات المسلمة ورأوا من قريب أو بعيد نتائج الدعم الذي تلقاه هذه المجموعات، ورأوا كذلك عن كثب تأثير وجود مراكز لا تقتصر على «صرف المال الكثير على اجتماعات ولقاءات وزيارات وحفلات في الخارج يكثر فيها الكلام..» كما يذكر الكاتب، ولا يمنع هذا من وجود نماذج قليلة جداً تسيء إلى الفكرة وتجعل من حوادث تطرأ أحياناً حجة على العمل الإسلامي في «الشمال».

● ● نقطة اللقاء التي نقترحها لتجمع بين هذه الفكرة وتلك أن توجّه الجهود إلى هذا المجال في الوقت ذاته الذي توجّه فيه الجهود إلى ذلكم المجال، ويكون لهذا رجاله ولذلك رجاله، ويكون لهذا مموّلوه ولذلك مموّلوه، وأهل الخير ـ بعد أن توضح لهم الصورة، ويلتقطوها من جهات يثقون بها ـ لن يترددوا في بذل الخير في كل ما يعود عليهم وعلى إخوتهم وأبنائهم بالخير.

وأنا أعلم أن هناك بعض الأفراد ممن ساروا نحو توجيه مجهوداتهم إلى أوروبا وآسيا وقاموا بإنشاء المدارس والمساجد والمستشفيات ـ والحصول لأبناء هذه المناطق ـ على منح دراسية في الجامعات العربية وفي مجالات علمية مختلفة، إلى جانب مشروعات وبرامج أخرى كانت

تقابل بالترحيب المنقطع النظير من قبل الأهالي الذين يتشوقون بصدق إلى أولئك الذين تربطهم معهم العقيدة ليأتوا ويسهموا في القضاء على مشكلات متعددة تمر بها هذه المجموعات من الناس.

ويعمل هؤلاء الأفراد في هذا الجانب في وقت لم ينكروا فيه عمل إخوة لهم ركزوا جهودهم على تنمية الوجود الإسلامي بصورته الواضحة في أوروبا وأمريكا وعملوا على إنقاذ أجيال مسلمة من أن ينحرفوا مع من انحرف في تيار المادية وسطحية العلاقة مع الله.

يذكر لي أحد المقيمين في إحدى البلاد الأوروبية أنه لولا فضل من الله عليهم بأن قيض لهم مركزاً إسلامياً ـ هو عبارة عن شقة ـ لكانوا في حالة لا يستطيع أن يتصورها هو، إلا أنه لكونه منفرداً عن محيطه الإسلامي الجماعي في وسط غير إسلامي فإنه لا بد أن يعتريه ـ كما يعتري غيره ـ الخمول والكسل وضعف الثقافة وقلة الحافز، وذلك لبعده عن أسلوب الجماعة التي يقوّي بعضها بعضاً. ولا أرى هنا أن تترك هذه المجالات في سبيل توجيه الجهد والمال إلى المجالات المحلية في العالم الإسلامي دون شمولها للمسلمين المقيمين في مجتمعات غير إسلامية، كما أن ما أعنيه هنا لا يمكن أن يكون على حساب مجهود آخر، بمعنى أن تغفل حاجة في سبيل تحقيق حاجة أخرى قد يبدو أنها أولى من تلك وأكثر ضرورة مع التصور التام والاعتراف بأن الحاجة قائمة.

● ● وإذا كان الكاتب يدعو إلى عدم الاقتصار على مجموعة من الأفراد التي تقوم بمثل هذه الأعمال في ديار المسلمين، فيدعو إلى التوسع في هذا من خلال الهيئات والمنظمات الإسلامية، فإنها دعوة حقة لها جذورها من خلال ما تقوم به هيئات مثل رابطة العالم الإسلامي والندوة العالمية للشباب المسلم وغيرها، فالتوسع في هذه الجهود أمر مطلوب ومرغوب فيه، وتقع على عاتق القائمين على هذه الهيئات

مسؤولية كبرى حيالها، ولا أخالهم يغفلون عن ذلك، ولكني أعتقد أنهم يبذلون قصارى جهدهم لإيلائها الأهمية والعناية مع النقص الملموس في القوى العاملة الخبيرة المدربة التي يكون لديها الاستعداد التام لبذل الكثير من الجهد الذي لا تقابله مكافأة أو مرتب؛ لأنه يندرج في مضمار الدعوة إلى الله وتبصير المسلمين بأمور دينهم، وهي عموماً تعمل وتتوسع يوماً بعد الآخر في ثقلها وتأثيرها ووضوح مجهوداتها لكثير من الناس، وفي هذا دلالة على أنها تقدم من الخدمات ما يفرض وجودها. ولا شك أن القائمين في مثل هذه الهيئات يرحبون ترحيباً عملياً بكل مجهود ـ مدروس ـ من شأنه أن يكون امتداداً للجهود التي تقوم هي بها، ويؤكّد هذا المنحى دائماً على لسان المسؤولين في هذه المنظمات أو الهيئات.

● ● والذي لا بد من التأكيد عليه هنا هو أن إقامة المراكز الإسلامية وما يتبعها في أوروبا وأمريكا قد يكون مصدراً من المصادر التي يعتمد عليها اعتماداً غير بسيط في «تمويل» المشروعات والبرامج المقامة للاهتمام بالمسلمين في إفريقيا وآسيا، فقد ساهمت هذه المراكز ـ في أوقات متفرقة ـ في بيان الصورة الحقيقية التي يعيشها إخوة مسلمون يمرون بظروف قاسية لأسباب كثيرة، فإفريقيا قد نالها ما نالها من مساهمات المراكز في سبيل التغلب على موجة الجفاف التي تمر بها، والمجاهدون في أفغانستان والمهاجرون منهم قد تلقوا ما تلقوه من المراكز الإسلامية في أمريكا وأوروبا من مساعدات عينية ومادية، إذن لعل من الخير الذي أدته هذه المراكز ـ بالإضافة إلى ما تقوم به محلياً ـ هو امتداد خدماتها وجهودها إلى بلاد المسلمين التي تعاني المشاكل وبلاد المسلمين التي لا تبدو فيها المشاكل واضحة، ولا يشك من تابع مجهودات هذه المراكز أنها خرّجت رجالاً ونساءً صالحين ممن بقوا هناك وممن عادوا إلى بلاد المسلمين ليعرّفوا إخوتهم الآخرين على مواطن بذل

الخير ويقرّبوهم من الاهتمام بأمور المسلمين الآخرين بأساليب علمية موضوعية خالية من سيطرة العاطفة وتتبع الجوانب التي تسيء إلى مسيرة الخير المباركة. جهود هؤلاء وجهود أولئك كلها مجتمعة تجعل المرء يخرج بنتيجة أن أبواب الخير كثيرة وأن كثيراً من المسلمين هم بحاجة إلى بعضهم البعض بغض النظر عن المكان الذي يتواجدون فيه. وكان الله في عون الجميع.

«الجزيرة» العدد ٤٩٠٩

السبت ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ/ ٨ مارس ١٩٨٦ م

الأقليات المسلمة.. صور غير خاصة!

فجر يوم عيد الأضحى المبارك من العام المنصرم ١٤٠٥ هـ هاتف أحد العرب المقيمين في أوروبا واحداً من القائمين على المراكز الإسلامية هناك وذكر له ـ والأسى يبدو على نبرات صوته ـ أنه اكتشف ليلة البارحة أن ابنته البالغة من العمر أربعة عشر عاماً قد «تنصَّرت»، وسأل القائم على المركز عن الوسيلة التي يمكن من خلالها إقناع الفتاة في العودة إلى الإسلام بعد الردة. والقائم على المركز هذا يعد من المفكرين المسلمين ذوي الصيت الواسع في انتشاره، وما كان منه إلا أن خفف على الرجل مصيبته ودعاه إلى جلسة طويلة خاصة يتناقشان فيها حول المشكلة، أو هكذا بدا لي من حديث الرجل. إلاّ أن الرجل جعل من هذه الحادثة موضوع خطبة العيد وركز على التقصير الملحوظ في متابعة الوالدين أولادهم وتربيتهم في المنازل بعد أن تعذرت تربيتهم في المدارس، بل قل بعد أن سرت فيهم مظاهر عدم التربية في المدارس، وخف ارتيادهم للمساجد والمراكز.

هذا جانب واحد «ظاهر» من الجوانب العديدة التي ترتطم بها مجموعات كبيرة من «الأقليات» المسلمة في أوروبا وأمريكا والشرق عموماً، بغض النظر عن كون هذه الأقليات عربية أو غير عربية. وهذا

جانب تنبه إليه الوالد فلم يحتمله فبحث عن ذوي المعرفة وأهل الذكر سعياً وراء «ترقيع» للمشكلة، وهناك حالات كثيرة تضيع معها أجيال من أبناء المسلمين بسبب ظروف تمر بأهلهم تجعلهم يغفلون في أبنائهم غرس مبادىء الخير والصلاح منذ طفولتهم. وهذه الجوانب اجتماعية وخلقية واقتصادية عديدة جداً، ربما صعب حصرها هنا، ولكن يأتي منها لجوء كثير من الشباب المسلمين الذين يبحثون عن إقامات طويلة في بلاد أوروبا وأمريكا إلى الزواج من نساء البلاد التي ينوون الإقامة فيها. ويأخذ هذا الأسلوب صوراً متعددة، منها الزواج الحق الذي يراد منه حياة مستمرة تجلب فيما تجلب الإقامة الدائمة، ولا يكون في نية صاحبها أكثر من هذا المسار الطبيعي للزواج، وتتعدد الصور إلى أن تصل إلى «استئجار» زوجة بمبلغ متفق عليه يقوم بعده الطرفان بالتسجيل بالجهات الرسمية فتحمل المرأة هناك اسم «زوجها» الجديد إلى أن يحصل هذا «الزوج» على الإقامة، عندها يتم الطلاق عن تراض بينهما. وقد وصلت هذه الصورة في بعض المواقف إلى أن المرأة لا تعرف الرجل، وأن الرجل لا يعرفها ولم يتقابلا حتى عند «كتب الكتاب»، بل قد حدث أن كانت الزوجة في أقصى الجنوب والزوج في الشمال وتم بينهما العقد إلى أن تحققت الغاية منه، وقد حدث أيضاً أن تزوج ذو العشرين عاماً ذات الخمسين والستين عاماً قصداً إلى الغاية المذكورة، ولا مبالغة هنا البتة، على أن هناك صوراً عجيبة وقع فيها مجموعات من شباب المسلمين يدفعون فيما بعد ثمنها غالياً من عواطفهم وأحاسيسهم ومشاعرهم. وتكون غصة في حياتهم لا تفارقهم حتى في المنام، ولو تبصروا أمور دينهم لأغناهم عن هذه المهاوي المهلكة.

ضياع الوالد والمولود!

ولعل من أنواع الثمن الغالي الذي يدفعه بعض الشباب المسلم

عندما يبحثون عن الإقامة المستمرة بلجوئهم إلى الزواج أن يثمر هذا الزواج عن طفل أو طفلين يعقبهما طلاق، فتحكم المحاكم هناك أن تكون رعاية الطفل لأمه وعلى الوالد النفقة، فتنفرد الأم بأطفالها وتملي عليهم خلفيتها وتحرص على ذلك أكثر من غيرها، لا لشيء إلا لأن والدهم مسلم، وإن لم تكن هي من المتحمسات لدينها، وقد حصل في هذا الصدد أن أرسلت الأم صورة ابنتها لأبيها وهي في الكنيسة تصلي قصداً منها إلى إغاظة الأب والانتقام منه بطعنه في موقع حساس فيه يتصل بمعتقده ودينه، وأخرى افترقت عن زوجها وهي حامل وأنجبت طفلة منه ولم تسمح له ـ ولم يسمح له القانون ـ بأن يرى طفلته رغم أنه فرض عليه نفقتها ونفقة أمها، وذلك كله بحجة أن الأم أملت على المحكمة أن الأب ربما خطف البنت وهرب!.

وإن لم ينصر الأطفال وكانت هذه الصور الفردية فإنهم ـ ولا شك ـ ضائعون، والذي تتاح له فرصة «التعمق» في زيارة تلكم المجتمعات ودراستها عن كثب يمكن أن يلاحظ ضياع مجموعة من شباب المسلمين ذوي الخلفية الواحدة، فكيف بأولئك الذين ينشأون في ظل أسرة خلفياتها متفاوتة، وقام بينها صراع قوي أدى إلى الفراق الذي أدى بدوره إلى ضياع الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً!

ولعله من الأفضل ألا يقال إن هذه تصرفات شخصية يتحملها أصحابها ويكونون في واقع المسؤولية المنفردة وراء ما وصلت إليه ظروفهم؛ لأن هذه الصور لا تعدو أن تكون جزءاً من صور كثيرة تجمع سوياً لتكوّن في مجموعها مشاكل (مشكلات) الأقليات المسلمة في أي مكان من العالم غير المسلم. ولنا دور واضح في النظر في هذه المشكلات مجتمعة ومنفردة والمحاولة الجادة في سبيل التدخل على مختلف المستويات لحلها، بل وربما القضاء عليها. وأساليب ذلك كثيرة

جداً، منها ما تقوم به الهيئات والمنظمات والاتحادات الإسلامية لمواجهة الأخطار المشتركة للمسلمين في كل مكان. ومنها ما يقوم به أهل الخير في سبيل تهيئة أجواء دينية للمسلمين وأبنائهم هناك ببذل المال في سبيل تبني المشروعات الإسلامية من مساجد ومدارس وتهيئة أعمال للمسلمين وإتاحة فرص لهم ليس في بلاد المسلمين فحسب، بل في البلاد الأخرى. والمال العربي ومال المسلمين ليس عاجزاً اليوم عن تبني مثل هذه المشروعات، كما أن الخير وبذله لا يتوقف عند حدود مرسومة، وليس هناك قوانين رسمية محلية أو دولية تفرض قيوداً على أعمال الخير سواء في بلاد المسلمين أو في البلاد الأخرى.

في أوروبا وأمريكا تجد جاليات مسلمة لا تستطيع تحمل أعباء المؤسسات التي تخدم مناهجها، كالمسجد والمدرسة والمكتبة، فتلجأ إلى استئجار الشقق/ مفروشة أو غير مفروشة! لتزاول فيها أنشطتها وسط مضايقات الجيران الذين قد يلاحظون حركة غير عادية في هذه الشقة أو تلك فيلجأون إلى سلطات الأمن لحمايتهم منها ظناً منهم أنهم ربما لحقهم من هذه الشقة بعض من أذى، في وقت تَجِدُّ فيه وسائل الإعلام هناك على رسم صورة غير نقية عن العرب خاصة وعن المسلمين عامة. وأذكر أنه في مدينة أمريكية كبيرة سبعة مساجد، كلها لا يرى فيها صورة المسجد، بل هي بيوت مستأجرة تدفع أجرتها من تبرعات توضع في «صندوق» صغير ألصق في زاوية من زوايا المنزل لا يكاد يُرَى!

وفي المؤتمر العالمي السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي الذي عقد في الرياض في منتصف جمادى الأولى من هذا العام ١٤٠٦ هـ، ركز على بعض من هذه الجوانب التي تتعلق بالأقليات المسلمة في العالم، ومن توصيات المؤتمر متابعة أخبار الأقليات المسلمة والتعرف على مشكلاتها والتعريف بهذه المشكلات. وهذه بدورها سوف تضفي

على هذه الجوانب شيئاً من التأكيد هي في حاجة إليه، متضامنة إليه في ذلك مع رابطة العالم الإسلامي والهيئات والاتحادات والمنظمات الإسلامية الأخرى في سبيل المساهمة في إبراز هذه الجوانب للآخرين وإطلاعهم عليها، ومن ثم المساهمة ـ مساهمة مهما كانت متواضعة ـ في الوصول إلى حلول قريبة الأجل وطويلة المدى تضامناً مع إخوة مسلمين أجبرتهم ظروف كثيرة على البحث عن لقمة العيش في بيئات لم تفتح لهم صدرها، ولم يكونوا يتوقعون أن يقابلوا ما قابلوه بعد أن «تورطوا» في العيش هناك، فكان الله في عونهم، وكان الله في عون الجميع.

«الجزيرة» العددة ٤٩٠٢

السبت ٢٠ جمادي الآخرة ١٤٠٦ هـ الموافق ١ مارس ١٩٨٦ م

العمل الإسلامي في «الشمال والجنوب»!

الذين قرأوا كتاب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي «الصحوة الإسلامية بين التطرف والجحود» ثم واصلوا مع الشيخ الدكتور حديثه ومقابلاته ومحاضراته عن هذه الظاهرة يدركون أننا نعيش صحوة إسلامية حقّة منبعثة عن دوافع ذاتية في وجدان أولئكم الذين بدت عليهم هذه الظاهرة بارزة، فهم لم يقلدوا في هذا أحداً ولم يسيروا تابعين لشعارات وهتافات همها إشعال روح الحماسة وتغليب جوانب العاطفة. بل إنهم في تمثلهم لهذه الظاهرة عمدوا إلى الجانب العلمي الموضوعي فنهلوا من علوم الدين وتدارسوا تعاليمه.

وجود هذه الظاهرة دعا بالضرورة إلى الالتفات إلى الظروف التي يعيشها المسلمون شرقاً وغرباً، سواء في ذلك المنطقة الصناعية «الشمال» والمناطق المعدومة «الجنوب» والتي يعمد البعض إلى تسميتها «بالمناطق النامية». فالالتفات إلى ظروف المسلمين في الشمال جاء من زاوية أنهم هناك يمثلون أقليات في مجتمعات غير مسلمة احتاجوا حيالها إلى أن يلتفوا حول بعضهم فلا يضحى الواحد منهم كالغنم القاصية نهباً للذئاب فريسة لها. والتفاهم حول بعضهم تطلب إقامة المراكز الإسلامية المتعددة في أوروبا وأمريكا وما تشمله هذه المراكز من مصليات ومدارس

ومكتبات، وربما أحياناً منافع تدر على هذه المراكز أرباحاً حلالاً خالية من شوائب الربا. وقيام هذه المراكز تطلب بدوره الدعوة المستمرة إلى تطويرها واستقلالها وتميزها، وقد بدأت بعض المراكز على شكل شقة تستأجر في عمارة كبيرة ثم ما لبث بعض منها أن أصبح مركزاً واضح المعالم. والدعوة المستمرة هذه تطلبت بدورها كذلك جمع التبرعات والصدقات والمساهمات في إقامة هذه المراكز واستمرارية عملها وصيانتها وما يتطلبه عادة إقامة مركز جماعي كبير.

والالتفات إلى ظروف المسلمين في المناطق المسلمة جاء من زاوية أن معظم بلاد المسلمين تعاني من الفقر والجهل والمرض، والنظر إلى هذه الحالة يدعو المهتمين من رجال الدعوة في الإسلام إلى محاولة لفت أنظار أهل الخير من المتبرعين والمتصدقين والمساهمين إلى هذه الفئات من المسلمين من حيث كونهم أحق من غيرهم في الاهتمام لما هي عليه حالهم الآن، ولما يتهددهم في مستقبل حياتهم من فناء عن طريق الفناء الطبيعي «الموت جوعاً ومرضاً وجهلاً» وعن طريق إفنائهم بإخراجهم عن دين الإسلام بواسطة جموع كثيرة جداً وصلت إلى عشرات الملايين من المنصرين، الذين لا ينتظرون من هذه الفئة من الناس تنصُّرهم أكثر مما هم ينتظرون منهم انسلاخهم عن دينهم. والشواهد على هذا كثيرة جاء بها من عمل تطوعاً أو عمل رسمياً في منظمات دولية كمنظمة الصحة العالمية.

ولا تفتأ الصحف المهتمة بهذا الشأن تتحدث عن هذه الظاهرة مدعمة حديثها بالحوادث والإحصاءات، ولعل من أراد التوسع في هذ أن ينظر إلى نموذج واحد في كتاب صدر عن سلسلة «كتاب الأمة» لمؤلفه الدكتور الطبيب: «نبيل صبحي الطويل» تحت عنوان «الحرمان والتخلف في ديار المسلمين» وقد صدرت طبعته الأولى في شوال من عام ١٤٠٤ هـ ممثلة العدد السابع من السلسلة المذكورة. ويهمني في هذا الكتاب

الإحصاءات الحديثة، وتحليلها الذي ورد في الكتاب، لما اتسمت به من أسلوب قد لا يقبله الكثيرون، وكان بالإمكان التعبير عن الفكرة ذاتها بأساليب أكثر موضوعية. وأذكر هذ التحفظ لئلا يعتقد أني أوافق الكاتب في كل ما ذهب إليه. وإنما أورد هذا النموذج دلالة على الوضع الذي وصل إليه كثير من المسلمين خاصة في آسيا وإفريقيا.

معايشة هذه الفئات من المسلمين دعت البعض إلى التأكيد على أولويتها في العمل الإسلامي وتقديمها على أي عمل آخر بما في ذلك الاهتمام بأحوال المسلمين في أوروبا وأمريكا، بحيث يدعو هؤلاء بصراحة إلى إغفال فكرة الأقليات ـ ولو لفترة ـ بحجة أن لديهم ما يعينهم ذاتياً على القيام بأنشطتهم الدينية من إقامة مراكز ونحوها، ومن ثم الالتفات إلى المسلمين في ديارهم والتركيز عليهم، وفي الوقت الذي يعذر فيه هؤلاء في مذهبهم هذا خاصة أنهم عايشوا المشكلات التي يواجهها المسلمون في بلادهم، والظروف الصعبة التي يعيشها هؤلاء فوقفوا عليها، ولم يكتفوا فقط بالقراءة والسماع عنها، وليس من رأى كمن سمع، في الوقت الذي يعذر فيه هؤلاء في هذا المذهب، يبدو أنه من الأفضل للعمل الإسلامي عموماً ـ وهو يعيش صحوة فعلية ـ أن يكون تركيز هنا وهناك، ولا يكون عمل على حساب عمل. إذ الملاحظ ـ هذه الأيام ـ أن الالتفات إلى البلاد المسلمة يزداد يوماً بعد يوم من قبل أشخاص متطوعين وهيئات ومنظمات إسلامية تحاول بكل ما أوتيت من إمكانات أن تساهم في التغلب على مشكلات الفقر والجوع والمرض. هذا بالإضافة إلى جمعيات خيرية بدأت تبرز على الساحة، ولم تكن من قبل تطرق تفكير أحد من الناس. والذين ينتظرون من هذه الجمعيات أن تقف على قدميها بين يوم وليلة في سبيل أن تقف في طريق تلكم الجمعيات التنصيرية لا بد أنهم أغفلوا الظروف التي تمر بها هذه الجمعيات من حيث كونها حديثة في نشوئها وتحتاج إلى وقت طويل ـ في

حساب الأيام والسنين ـ حتى تصل إلى مستوى الجمعيات الأخرى التي تخطت المئتي عام منذ إنشائها. ولكن «جمعياتنا هذه على الطريق الحق تسير وستصل ما دامت قد جعلت هدفها جهاداً في سبيل الله».

والملاحظة التي لا بد من طرحها هنا هي أن مجموعات ممن عملوا على إقامة مراكز إسلامية في منطقة «الشمال» يعملون الآن على إقامة المساجد والمدارس والمستشفيات في آسيا وإفريقيا. بل إن بعضاً منهم يصح أن نطلق عليهم أنهم خريجو المراكز الإسلامية في أوروبا وأمريكا. ولا نقول كلهم لئلا نبخس الباقين حقهم. ولكنه مجرد تدليل على أن العمل الإسلامي اليوم يكاد أن يثبت لكثيرين أنه كل لا يتجزأ من حيث شمولية الصحوة الإسلامية بين أبنائه يستوي منهم أولئك الذين يعملون في أوروبا وأمريكا من الأقليات المسلمة، والذين يعانون مشكلات غير سهلة في بلاد المسلمين في آسيا وإفريقيا. ومجهودات الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي اليوم يغذي بعضها بعضاً ويستفيد بعضها من الآخر. وتتضافر الجهود جميعها لتنتشر في رقعة واسعة من أرض الله، فلا تكون جهود على حساب جهود، ولا يطغى تركيز على تركيز آخر، إذ الحاجة قائمة هنا وهناك، والخوف من الضياع يهدد هؤلاء وهؤلاء على حد سواء، وإن كان التهديد في بلاد المسلمين أوضح منه في بلاد أوروبا وأمريكا. والذي ربما خشيه المرء أن يستهان بعمل في سبيل التأكيد على عمل آخر، فتكون النتيجة بروز جانب من الشك لدى بعض الناس من جدوى العمل عموماً هنا وهناك فيقل العطاء وتذهب الجهود سدى فتقتصر على الجانب النظري فقط. وتلكم نهاية لا نريد أن يصل إليها العاملون في طريق الخير **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**.

المسلمون العدد ٦٥

١٤٠٦/٨/٢٤ هـ الموافق ١٣/ ١٠/ ١٩٨٦ م

«الفاروقي».. رجلٌ فقدته القضية

إسماعيل راجي الفاروقي أستاذ بجامعة تمبل بمدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، أمريكي الجنسية فلسطيني الأصل، مسلم العقيدة، كان يرأس برنامج الدراسات الإسلامية العليا بالجامعة.

كان يكتب كثيراً عن الأديان ويحاضر حولها ويعقد الندوات، ويساهم في المؤتمرات. كتب عن قضية المسلمين في فلسطين كتابات علمية دقيقة وانعكست العلمية والدقة كذلك على محاضراته وندواته. عرفته عن كثب عام ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م عندما بدأت مشوار الدراسات العليا بتعلم اللغة الانجليزية بجامعة تمبل المذكورة. كنت ومجموعة من الزملاء نلتقي به في مناسبات متعددة، كان يحدثنا فيها عن الحياة في الولايات المتحدة بالإضافة إلى أشياء أخرى. في اليوم التاسع عشر من رمضان ١٤٠٦ هـ وفي حوالي الساعة الثالثة إلا قليلاً من صباح ذلكم اليوم انتقل هذا الأستاذ إلى رحمة الله تعالى هو وزوجته مقتولين.

قصة مقتله:

في الساعة الثانية والنصف من صباح ذلكم اليوم الثلاثاء ٢٧/ ٥/ ١٩٨٦ م نزلت الدكتورة لمياء (وكان اسمها لويز) الفاروقي لتحضير طعام

السحور لزوجها وابنتها ولها. ومن خلال نافذة قريبة من المطبخ دخل رجل، فكان أول من واجهه الزوجة فما كان منه إلا أن طعنها بسكين طعنات أودت بحياتها، سمعت البنت (أنمار الزين) صراخ أمها فهرعت إليه لتواجه مجموعات أخرى من الطعنات. وكان الوقت يمر بسرعة على القاتل مما جعله لم يتمكن أن يجهز على الابنة ليتوجَّه إلى الطابق العلوي حيث يرقد إسماعيل الفاروقي، وكان إسماعيل قد سمع صراخ الأم والبنت فأسرع دون سابق تفكير ـ فيما يبدو ـ إليهما وإذا به يواجه بالقاتل في الطريق ويطعنه مجموعة من الطعنات تودي بحياته. إلاّ أن «أنمار الزين» مع كثرة ما أصابها لم يرد الله لها الموت لتحيا هذه المأساة فترويها للآخرين، وتؤكد أن القاتل لم يكن ـ كما زعم البعض ـ من سود أمريكا أو أنه من مسلمي أمريكا، كما تردد أول الأمر من قبل بعض الذين نشروا الخبر!

ويذكر شهود العيان أنه بعد سماع الأصوات داخل البيت سمعوا أيضاً أصواتاً تهرب من البيت وكانت مختبئة وراء بعض الأشجار التي تحيط بالبيت. كما يذكر شهود العيان أنه كانت هناك سيارة تحمل ثلاثة أشخاص وكانت تحوم حول المنزل قبل الحادثة. واستُبعد أن يكون الدافع لهذا كله مجرد السرقة، ولذا فقد أمر «إدون ميس» المحامي العام في الولايات المتحدة الأمريكية قوة من الإف. بي. أي. بالتحقيق في الأمر. وبعد ذلك سحبت هذه القوة وترك التحقيق في يد شرطة الحي مع إمكانية مساعدتها تقنياً من الهيئة الفدرالية للتحقيق.

وهنا يبرز اسم منظمتين يهوديتين تتجه إليهما أصابع الاتهام خاصة أن الأستاذ الفاروقي قد كتب قبل مدة قصيرة عن فلسطين والجور الذي يلقاه الفلسطينيون من الصهيونية، وما وصل إليه ذلك من تشابك وتعقيد محزن يوحي بأنه لا طريق لإيقاف مثل هذه المعاملة غير قيام حرب

طاحنة. والمنظمة اليهودية الأولى رابطة الدفاع اليهودية والأخرى منظمة الدفاع اليهودية (أو رابطة الدفاع عن اليهود، ومنظمة الدفاع عن اليهود) وهما منظمتان إرهابيتان متطرفتان ذواتا علاقة قوية بإسرائيل في فلسطين المحتلة.

وقبل مقتل الأستاذ الفاروقي بأشهر قتل أليكس عودة المنسق المحلي في كاليفورنيا للجنة التمييز ضد العرب الأمريكيين. وكان الأستاذ الفاروقي عضواً في هذه اللجنة ـ وبعد مقتل عودة أصدر مدير الهيئة الفدرالية للتحقيق (الإف. بي. أي) تحذيراً للعرب الأمريكيين بأنهم أصبحوا هدفاً رئيسياً للمجموعات اليهودية المتطرفة. وقد وقع هجوم على مكاتب اللجنة في كل من فرانسيسكو وبوسطن.

ولم تتوقف التهديدات على مكاتب اللجنة، بل إن مساجد المسلمين هناك تعرضت للهجوم والتهديد. ففي العام الماضي أحرق مسجد دار السلام في هيوستين/ تكساس وكان ذاك خلال اختطاف طائرة طيران عبر العالم (تي دبليو. أي) وهددت المساجد والمراكز الإسلامية في شيكاغو، ودنفر بكولورادو، وديترويت بولاية ميشجان حيث يقع حي «ديربورون» المليء بالجالية اليمنية.

وقبل مقتل الفاروقي بأسبوعين نشرت مجلة تدعى «صوت القرية» تحقيقاً مع رئيس رابطة الدفاع اليهودي ذكر فيه أنه ورابطته بصدد زرع الخوف في أذهان وعقول أعداء اليهودية الصهيونية، وأنه بصدد «إسكات» أحد الأساتذة الفلسطينيين الأمريكيين الذين يدافعون عن فلسطين وعن منظمة التحرير الفلسطينية. ورغم أن البعض فهم من هذا التهديد أن الشخص المقصود هو الأستاذ إدوارد سعيد صاحب الوقفات المعروفة ضد اليهود. إلا أن العارفين يقولون إن الفاروقي قد أدخل ضمناً في هذا التهديد الذي وجهه رئيس الرابطة المذكورة وذلك لما للفاروقي من

مواقف مشابهة تماماً لمواقف أستاذ جامعة كولومبيا بنيويورك إدوارد سعيد، وإن يكن الفاروقي إلى الكتابات العلمية والبحث والدراسات أقرب منه إلى الأضواء الإعلامية التي تسلط على إدوارد.

صناعة السينما:

وفي هذه الأثناء ظهر فيلمان في سلسلة طويلة من الأفلام السينمائية والتلفزيونية كان عنوان أحدهما (قوة الدلتا) وعنوان الآخر (تحت الحصار)، وكانا موجهين ضد المسلمين ودعاية للصهيونية في فلسطين. ويخرج المشاهد منهما بأن المسلم إنما هو صانع المشاكل، وصانع المشاكل لا ينفع معه إلاّ الإسكات، ولذا لا بد من إسكات العرب والمسلمين. ولولا الثقة بالمصادر التي أخذت منها هذه المعلومات لما رصدتها هنا؛ لأن البعض قد لا يتصور أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد. ولكن السيطرة الصهيونية على الإعلام عموماً هناك قد جرَّت إلى أكثر من هذا.

وقد أجرى بعض الباحثين مسحاً لرجال «هوليود» من منتجين ومخرجين وكتَّاب قصة فوجد نسبة كبيرة منهم تصل إلى ٩٧٪ من اليهود أو من يدور في فلك اليهود. ويؤكد ذلك يوسف إسلام «كات ستيفنز» حينما قال إنه قبل أن يعلن إسلامه، كانت مئات التحقيقات تلاحقه بلاقطات الصور والمحققين والمحققات، وتبدل الحال عندما منَّ الله تعالى عليه بالإسلام، فيُهْجَر الرجل ولا تكاد تسمع عنه كلمة في الإعلام حتى ليكاد البعض يعتقد بأنه قد مات رغم أنهم لا يزالون يستمعون إلى أغانيه التي أوصلته في يوم من الأيام إلى مرتبة السوبر ستار!.

ويؤكد ذلك أيضاً المفكر الأستاذ رجاء جارودي وما يتعرض له الآن من حملة لم يكن يتعرض لها من قبل، رغم أنه ترك الحزب الشيوعي

الفرنسي بفترة غير قليلة قبل أن يشهر إسلامه، ولا يكاد اليوم يجد ناشراً واحداً من مجموعة أولئكم الناشرين الذين كانوا يلاحقونه ويعرضون عليه خدماتهم مقابل مردود مادي كبير يمنحونه إياه فيما إذا وافق على نشر كتبه عندهم. كما كانت الدوريات تلاحقه بذات الأسلوب وذات الحماسة.

● ● وفي الوقت الذي تزداد فيه الحملات على العرب والمسلمين في أمريكا وأوروبا وفلسطين المحتلة، يزداد إصرار العرب والمسلمين على الثبات والصبر والتحمل والبحث عن المخرج لهذه الأزمة، التي يبدو أنها طالت نوعاً ما عند البعض الذين كانوا يتوقعون أن حل هذه المشكلة لن يتعدى حقبة من الزمن لن يشهدها الجيل الثاني من أبناء المشكلة الذين عايشوها منذ عام ١٩٤٨ م ولا يزال بعضهم يعايشها إلى اليوم.

وفي هذا الوقت الذي تفقد فيه قضية المسلمين داعية من دعاة الحق في فلسطين وفي الجوانب الأخرى في غير فلسطين يجد العرب والمسلمون أنفسهم وقد ازداد فيهم ذلكم الثبات والصبر والتحمل، خاصة أن العارفين منهم يدركون تماماً أن ما يمر بهم في هذه المرحلة التاريخية الحرجة إنما هو ابتلاء من الله تعالى لإيمان هؤلاء فيزداد لهذا ثباتهم.

فهل قتل إسماعيل راجي الفاروقي بسبب موقفه من اليهود ومن سار في فلكهم؟ سؤال يكاد يؤكد على إيجابيته كثير من المطلعين على الحركة الإسلامية في أمريكا، والمطلعين في ذات الوقت على الحركة اليهودية في البلد ذاتها. وكم يتطلع المرء إلى أن يلقي السؤال على مجموعة من رجال الحركة الإسلامية هناك ليسمع منهم ردود فعلهم. كما يتوق المرء إلى أن يلقي السؤال نفسه على أولئك الذين يدافعون عن المصالح العربية من مفكرين وعلماء وسياسيين في الولايات المتحدة الأمريكية ليسمع منهم وجهات نظرهم حول مقتل الفاروقي بهذه الصورة العنيفة، خاصة إذا نُظر إلى هذه الحادثة على أنها حلقة من سلسلة من مجموع الحوادث التي

يتعرض لها المسلمون والعرب في الآونة الأخيرة، وبخاصة منهم ذوو الخلفية العربية.

وقد يطول الوقت قبل الإجابة على هذا السؤال إجابة مؤكدة رسمية علمية، وقد لا يجاب عليه كما لم يجب بعد على أسرار مقتل «مالكم إكس» ذلكم الأمريكي المسلم الذي طوى النسيان قضيته التي ترفض أن تنطوي، وعلى أي حال فالرجل وزوجته قد أفضيا إلى ربهما، ويبقى لهما منا الدعاء بالمغفرة والرحمة، وأن يكتبهما الله من الشهداء الذين أفضوا في سبيل إظهار الحق والدفاع عنه وخدموا أمتهم وقضيتهم فلقوا في سبيل الله ما لقوه. ولن تعدم القضية أن تجد من يدافع عنها وينافح في سبيلها في أي بلد أجنبي، فإن أفضى واحد قام الآخر مكانه إلى أن يأذن الله للحق أن ينجلي.. «إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

كتابٌ في الحضيض..
والعمال الأجانب في ألمانيا!!

ألمانيا الغربية بها أكثر من مليوني تركي مسلم يعملون هناك في البناء والمصانع مع غيرهم.. وهم الذين قامت على أكتافهم ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية.. واليوم أصبح الألمان يضيقون من الأتراك ويضيقون عليهم الخناق.. ويطالبون بترحليهم بحجة أخذ فرص العمل المتاحة لهم.

فقام الصحفي الألماني بتقمص شخصية عامل تركي ليعايش مشاكلهم ويخرج منها بكتاب لم يرض عنه البعض.. ولكن على أي حال كان له تأثير في توضيح المشكلة التي يتناولها كاتب اليوميات اليوم.

في ألمانيا الغربية يوجد أكثر من مليوني (٢,٠٠٠,٠٠٠) تركي مسلم يعملون هناك في البناء والمصانع والمعامل. هؤلاء مع غيرهم من مواطني بعض دول أوروبا الشرقية وإيطاليا هم الذين قامت على أكتافهم ألمانيا الاتحادية اليوم مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ م) بعد أن كانت أنقاضاً على جثة أدولف هتلر الذي قضى عليها بسبب نزعته العنصرية التي لا تزال قائمة لدى النازيين الجدد.

بعد أن بنى الأتراك ضاق بهم الألمان، فأصبحوا يضيقون عليهم تضييقاً غير رسمي؛ لأن القانون يحميهم.. ولكن الأتراك يقفون أمام هذه

المضايقات وقفة المصر الذي يعلم أنه بنى ما بنى ويستحق عليه التقدير حسياً ومعنوياً. وإزاء هذين الموقفين صار التركي هناك يحاول التميز على غيره. إنه يصر على أن يظهر على أنه تركي وليس أوروبياً أو ألمانياً. وبحث الأتراك عن وسائل التميز فوجد بعضهم أن دينهم هو الذي يميزهم فأقاموا المساجد والمراكز الإسلامية، وصاروا يترددون عليها ويشجعون أبناءهم على ارتيادها. وأصبح الطفل التركي في ألمانيا يحفظ شيئاً من القرآن الكريم ويعرف المعلومات الرئيسية عن الإسلام. وأصبحت تتجول في بعض المدن الرئيسية فترى التركي وتعرف أنه تركي إلا القلة الذين ابتلعتهم المدنية الزائفة.

وحيث إن الأتراك كانوا ولا يزال كثير منهم يعملون بأعمال غير فنية تجاههم وأعلنوا أن أي تركي يعمل في ألمانيا ويريد أن يترك عمله لألماني تجاههم، وأعلنوا أي تركي يعمل في ألمانيا ويريد أن يترك عمله لألماني ويغادر إلى بلاده له الحق في الحصول على عشرين ألف مارك ألماني (٢٠,٠٠٠) مقابل تخليه عن عمله، وذلكم لأن الألمان احتجوا بأن الأتراك الموجودين قد أخذوا عنهم الفرص وتركوهم في بطالة، بينما واقع الرجل الألماني - عرقياً - لا يسمح له بالقيام بالأعمال التي يقوم بها الأتراك أو اليوغسلافيون أو الإيطاليون أو غيرهم من مواطني شرق أوروبا. ويصرح أحد الأحزاب السياسية هناك أن سبب المصائب التي تعيشها ألمانيا إنما أتت من العاملين الأجانب وفي مقدمتهم الأتراك. وتقوم المظاهرات الصاخبة التي تصوت بالشوارع داعية إلى خروج الأجانب من الأرض الألمانية.

وإزاء هذه الضغوط لا يخلو الأمر من قيام من يتعاطف مع هؤلاء العمال الأجانب. إذ يعترف كثير من العاقلين الألمان بما قام به الآخرون في ألمانيا بعد أن نسفت البلاد أضرار الحرب وأصرت على البناء. وهذه

الفئة القليلة من الألمان موزعة على جميع فئات الشعب الألماني. وأذكر أن أستاذ اللغة الألمانية في فرانكفورت قد قال لنا رداً على سؤالنا له عن مثل هذه الضغوط، يقول أتمنى أن يتوقف العاملون الأجانب يوماً واحداً عن القيام بمهامهم ليشعر الألمان بما لهؤلاء العمال من الأهمية في المجتمع الألماني. وذلكم كان موقفاً واقعياً، إذ هو يشير إلى أن جميع أو معظم مقومات المجتمع الألماني قائمة على هؤلاء العمال.

وصحفي ألماني يدعى «غنتر فالراف» يترك الصحيفة ويتقمص شخصية عامل تركي يسمى بعلي، ويطلق شاربه ويكحل عينيه ويحاول أن يخلع على بشرته ما يوحي بأنه عامل تركي. ويذهب إلى المحلات ويعرض نفسه للعمل وهو لا يحمل إقامة وليس هو على عهدة كفيل، ولأجل ذلك هو مستعد أن يعمل أكثر بأجر زهيد فيعمل ويطرد. ويعمل ويشرد ويعمل ولا يصبر على سوء المعاملة ويعمل ويطلع على نواح من الفساد الإداري. ويذهب إلى كنيسة يطلب التعميد، ويتعمد الذهاب إلى كنيسة تفرق بين نصارى ونصارى، ويحرج الراهب بمجموعة من الأسئلة الواعية بلغة ألمانية مكسرة ويتخلص منه الراهب دون أن يقبل تعميده. ويقابل بعض المسؤولين الكبار ويتعمد أن يظهر معهم في الصورة. كل ذلكم قام به خلال عشر سنين من عمره وهو يسجل كل ملاحظة تمر به ويلاحق كل إعلان طلب عاملين ويخضع للمقابلات الشخصية وهو صلب مصر على مظهره ولغته المكسرة. فعمل في المصانع والمناجم وعمل سائقاً وفي المطاعم وشجع كل ما هو تركي، حتى مباريات كرة القدم التي أقيمت بين تركيا وألمانيا حضرها بصفته مشجعاً تركياً يحمل العلم التركي، خالط الأتراك وتحفظ على الحديث معهم لركاكة لغته التركية. لم يترك مجالاً توقع أن العاملين الأتراك قد طرقوه إلا وطرق أبوابه.

وخرج أخيراً بكتاب من مائتين وأربع وخمسين صفحة (٢٥٤) وصف فيه كل ما مر به من متناقضات ومضايقات ومواقف حرجة بصفته العامل التركي «علي» وسمى كتابه تسمية ذات تعبير خاص في الأذن الألمانية. ولفت العنوان الأنظار، وقرأه الكثيرون، وكتب عنه أكثر مما كتب عن أي كتاب زامنه. وتحدث عنه التلفزيون ولاحقه زملاؤه الصحفيون يطمعون في كلمة من هذا الذي ضحى بعشر سنين من عمره في سبيل أن يخرج بكتاب. غضب عليه كثيرون، رموه بالتنكر لقوميته وعرقيته. رموه بالتعاطف مع المنافسين على أرض ألمانيا. ورماه أحدهم بالعمالة ولم يرض عنه بعض من العاملين الأتراك؛ لأنه في نظرهم لم يوفق في رسم صورة حقيقية للمجتمع التركي في ألمانيا، إذ بالغ في استخفاف الألمان بهم. وانتهى الأمر بالكتاب إلى أن يتحول إلى فيلم سينمائي يعرض على جميع من لم يستطيعوا القراءة بالألمانية، فتعاطف معه الكثيرون واستطاع بحق أن يحول من نظرة البعض تجاه العمال الأجانب عموماً وتجاه العمال الأتراك بوجه خاص.

على أن البعض رأى في الكتاب توسيعاً للفجوة بين الشعبين التركي والألماني من خلال ما ولده الكتاب من مشاعر غير ودية من قبل كثير من الأتراك تجاه الألمان، ومن قبل بعض الألمان تجاه الأتراك. وهذا الخليط من ردود الفعل أوقع الكاتب في حيرة من موقفه من بعض الآراء التي سطرها في كتابه. وأوقعت ردود الفعل الكتاب الآخرين في نظرتهم للكتاب وخاصة بعد أن تحول إلى فيلم وشاع أكثر من ذي قبل.

ويرى البعض أن الكتاب لا يعدو أن يكون تشريحاً للوضع الاجتماعي في أوروبا الغربية عموماً، وموقف مواطني أوروبا من الأجانب الذين جاءوا ليسدوا فراغاً لم يكن ليسد لولا الاستعانة بهؤلاء العاملين. ومع ذلكم يظل هؤلاء العاملون يلقون صنوفاً من التضييق تزداد يوماً بعد

يوم كلما ازدادت البطالة المحلية، وكلما ازداد الشعور بأن هؤلاء الضيوف يشكلون عبئاً كبيراً على المجتمع الأوروبي، خاصة بعد أن انتهى من الإعداد والتجهيز الأساسي لكثير من المرافق.

وقد لا يختلف الكتاب عن غيره من المقالات المنشورة سوى أنه وليد تجربة، وصدر من قلم مواطن لم يتوقع منه مثل هذا التشريح، وقد ترجم الكتاب إلى بعض اللغات، وأعلم أن هناك محاولات لنقله إلى اللغة العربية. وهو يفيد المجموعة العربية في المغرب العربي لوجود طائفة غير قليلة من عرب شمال إفريقيا يعملون في فرنسا وألمانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها.

لو مشى ربعي بن عامر في أوروبا..!

نظم مجموعة من «الوطنيين» في ألمانيا الغربية مظاهرة قوية موجهة إلى الأجانب تدعوهم فيها إلى مغادرة البلاد في سبيل إتاحة الفرصة للعاطلين عن العمل أن يحلوا محل هؤلاء الأجانب، حيث بلغ عدد العاطلين عن العمل في هذه البلاد أكثر من مليونين وربع مليون ألماني، في حين أن ألمانيا تحتضن أكثر من هذا العدد من أولئكم الأجانب، يشكل الأتراك المسلمون منهم نسبة كبيرة جداً قد تتخطى ٧٥٪ من المجموع الكلي لأولئك العاملين. وقد مرت هذه المظاهرة المعادية للأجانب على أحد المراكز الإسلامية في المدينة التي نظمت فيها المظاهرة. وكان اليوم يوم أحد تعقد فيه حلقة دراسية في المركز يحضرها مجموعة لا بأس بها من المسلمين. قام أحد العاملين في المركز وأطفأ الأنوار ودعا إخوته إلى لزوم الصمت وعدم النظر إلى المتظاهرين من خلال النوافذ، خوفاً من أن يصابوا ويصاب المركز بأذى!

وقد أصيبت مجموعة من المراكز الإسلامية في أوروبا بأنواع من الأذى وصلت في بعضها إلى إشعال النيران فيها. ولكن هذه الأساليب لم تثن، ولن تثن القائمين على دعوة الخير في الاستمرار فيها. ولكن الذي أود الوقوف عنده هو البعد الذي يعنيه هذا التصرف يوحي لي ـ على الأقل

ـ بأن الثقة التامة بإسلام المرء لم تتحقق عند الكثيرين بعد. ويبرز عامل فقدان الثقة في تصرفات كثيرة فردية لكنه في مجموعها تكون المقدرة على هذا الحكم. فحينما تسافر مجموعة من المسلمين من بلد إلى آخر فيحل وقت الصلاة وهم في سفر فلا بد لهم من الوقوف في «استراحة» يؤدون فيها الصلاة. وفي هذه الوقفة تجد بعضاً منهم ـ ولا أقول كلهم ـ يحاولون ما أمكن أن يبتعدوا عن الأنظار لئلا يعلم أنهم مسلمون! وقد يحتج البعض أن القوم هناك لم يتعودوا على مثل هذه الحركات فتثير عندهم الدهشة... وما إلى ذلك من محاولات «سطحية» لتبرير الهرب من الأنظار وقت الصلاة.

هذه الحالات في مجموعها وانتشارها تعكس حالة من «التخفي» التي يعيشها كثيرون من المسلمين في أوروبا وأمريكا، وتعمد البعض عدم إشعار الآخرين بأنه مسلم، وهذا يعني في مجتمعات كهذه «النزول» عن تكليفات كثيرة والتضحية في سبيل إخفاء الهوية الدينية. أقول هذا في الوقت الذي لا تكاد تخلو فيه محطة تلفزيون من إبراز الأنشطة الكنسية «العبادة» وأنشطة اليهود كذلك بشكل يوحي لمن لم يتنبه بأن هذا كله متعمد لإحياء هذه الأنشطة وجعلها جوانب عادية مألوفة بدلاً من أن تقتصر على الكنيسة أو المعبد. والمسلمون هناك يطالعون التلفزيون في معظمهم ويرون هذه الجوانب تبرز لهم دون شعور من القوم بضرورة إخفاء هذه الجوانب لئلا يقال عنهم أنهم نصارى أو يهود، بل إن بعضهم يعمد إلى تعليق الصليب أو النجمة السداسية على صدره لإشعار الآخرين بانتمائه الديني. ولست أدعو هنا إلى أن نعلق الهلال على صدورنا بقدر ما أدعو إلى أعمق من ذلك بكثير. أدعو هنا إلى زرع الثقة من جديد في أسلوب علاقة المسلم بربه، وإبراز هذه العلاقة للآخرين بالوجه الذي يعطيها إمكانية التأثير، فكم لفتة إسلامية صادقة كانت أثراً في إسلام الكثيرين!!

لا شك أن الدين الإسلامي يلقى حرباً قوية من قِبَل الكثيرين هناك، تنعكس هذه الحرب على وسائل الإعلام في عرضها للأحداث والمعلومات التي تتعلق بالإسلام والمسلمين. ولا شك كذلك أننا من حيث كوننا مسلمين نتحمل المسؤولية الأولى إزاء هذه الفكرة التي تسبغ علينا. ولا شك أن هذا كله من العمق بحيث لا يمكن أن يسمح لهذه الظاهرة أن تزول في وقت محدود. ولا أشك أيضاً في إمكانية زوالها في وقت قد يطول، ولكنه اليوم في بداياته المتعثرة التي تحاول أن تخطو اليوم بعد أن تتعدى مرحلة الحبو. فغرس الثقة الدينية بين المسلمين اليوم له مقوماته التي لا بد أن تتوافر على ساحة الدعوة عموماً وعلى الأرض الأوروبية والأمريكية التي تمثل جانباً كبيراً من ساحة الدعوة هذه.

ولن أسعى هنا إلى التنظير في كيفية غرس هذه الثقة من جديد. ولكني أستحضر صورة واحدة فقط تمثل قمة الثقة بهذا الدين حينما صاغها رجل مؤمن أمام واحد من «جباري» الأرض في زمنه. حيث دخل عليه مرفوع الرأس يضرب برمحه متاع الدنيا ومظاهر الترف ليقف أمام هذا «الجبار» ويقول له بكل قوة وبكل ثقة إنه قد أرسل إليه ليدعوه أو «ليحوله» من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. في حين كان الجبار «يُعبد» من دون اللّه بأسلوب أو بآخر من أساليب العبادة. الثقة تلك صحبتها مشية معتزة ـ ربما لا يحبذها الدين الإسلامي في غير هذه المواضع ـ مشية كانت تشبه مشية أبي دجانة في موقف أقرها فيه محمد رسول اللّه ﷺ ولم يقرها في موقف غيره.

تلكم صورة واحدة من تمثل الثقة في قمتها حينما تبرز صورة الإيمان واضحة في العقول والأذهان. ولعله لا يتوقع أن يوجد اليوم في أوروبا أو في أمريكا أو في العالم الإسلامي ذاته «ربعيون من بني عامر»، ولكن الذي يتوقع أن الذي دفع ربعياً إلى هذا يكون موجوداً في أذهان

أبناء المسلمين اليوم، بحيث يدعون إلى اللّه من خلال إبراز دين اللّه في حياتهم الخاصة والعامة من خلال عباداتهم ومعاملاتهم، وإعادة مثل هذه الثقة ـ بعيداً عن التنظير ـ لا بد أن يسبقها تبني هذه المراكز التي انتشرت اليوم في كل مكان معلنة الخطوة الأولى في طريق الثقة، وتبنيها يحتاج إلى مواصلة في دعمها بالعلم والكتب والأموال، فالعلم والكتاب والمال عناصر ثلاثة لا تكاد تدخل مركزاً من هذه المراكز إلا وتجده يعاني من نقصها مما أدى في بعض المواقف إلى أن يتصدى للعلم من لا يعلمون، فيفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون. وإذا كانت هناك جهود قائمة اليوم فهي جهود تحمد ولا تغفل، وإنما تأتي هذه الدعوة لتكثيف هذه الجهود من الناحية العلمية، وتكثيف أعمال الخير في دعم هذه المراكز والإسراع في ذلك في محاولة للتغلب على المعوقات «الإدارية» التي تبطىء في وصول مثل هذه الأعمال إلى من ينتظرونها.

ولن أصل في هذه الدعوة إلى أن تكون على حساب المجهودات القائمة اليوم في سبيل إعادة الثقة الدينية بين أبناء المسلمين في البلاد المسلمة، والتي يتعرضون فيها إلى أصناف كثيرة من محاولات إخراجهم إخراجاً تاماً عن دينهم، ويأتي على رأس هذه الأصناف تيار التنصير يزداد يوماً بعد يوم. وما تلكم إلا أصناف من التحديات التي يواجهها المسلمون، تنصب على دينهم محاولة جادة لنزعه من الصدور، وهيهات أن يتم ذلك ما بقي بين المسلمين ذوو المحجة البيضاء، وهم بفضل اللّه باقون.

إذاً نحن بحاجة اليوم ـ في معظمنا ـ إلى أن نقول للآخرين إننا مسلمون بملء فينا. ولن نقول (بملء فينا) ما لم تكن أذهاننا بها قد امتلأت، وعلى الذين يملكون أساليب ملؤها الأذهان تقع مسؤولية كبرى سيسألون عنها لا محالة، فكان اللّه في عونهم. وكان اللّه في عون الجميع.

في أمريكا..
يدخل الإسلام السجون!

عندما كتب «الكس هيلي» روايته الرائعة (الجذور) ومثلت تلفزيونياً على مرحلتين.. خرج الكاتب بها وخرج القارىء والمشاهد منها بنتائج كثيرة، كان آخرها أن بطل القصة يعود إلى خلفية إسلامية؛ لأن أحد أبناء البطل بعد أن يتتبع جذوره يسافر إلى البلد الذي سلب منه جده فيجد هناك أقاربه وأبناء أسرته يتبادلون السلام فيما بينهم ويقيمون الصلاة، ويرتادون المساجد، ويجد أن أقرب الناس إليه يدعى عبد الرحمن.

وتأتي هذه الرواية في وقت تصل فيه التفرقة العنصرية بين السود والبيض في أوروبا وأمريكا إلى مفترق الطرق. فالسود هناك لم يعودوا يكتفون بإبراز هذه الظاهرة نظرياً وعرضها على جميع الناس في كل المناسبات، ولكنهم طرقوا الأبواب العملية، ليجدوا لهم مكاناً مرموقاً في وسط هذه المجتمعات. فكان منهم الأطباء والجراحون والمهندسون وأساتذة الجامعات، بل ورواد الفضاء وعلماء في الذرة. ولا يزال منهم أولئك الذين آثروا السلبية تجاه هذا الوضع القائم، فكانوا فريسة للتفرقة، ونالوا منها نصيباً كبيراً أثر على مسيرة حياتهم، خاصة أنها حياة ـ في مجملها ـ خالية من المهارة والمهنية والخبرة في مجتمع يقيم لهذه الجوانب وزناً كبيراً.

وهذا الوضع جر هذه المجموعة مثلها في ذلك مثل أقليات أخرى إلى التعبير عن عدم رضاهم عن هذا الوضع القائم بأسلوب اتبع جانب الضرر لهم ولمجتمعاتهم، إذ لجأوا إلى الكحول والخمر يعاقرونها فتعقرهم، وإلى المخدرات تفتك بهم، ومن ثم إلى الجريمة بشتى أشكالها، من سرقة وقتل واغتصاب وإرهاب وما تركوا من هذه الجوانب طريقاً إلا وسلكوه. فكان مصير الكثيرين ممن أمسكت بهم يد العدالة أن يودعوا السجون التي غصَّت بهم، فقد كونوا بمجموعهم الكبير مشكلة تقوم على عدم إمكانية توفير المكان المناسب لهم، وذلك لكثرتهم فكانت المعاملة السيئة، وكان بروز ظاهرة الشغب في الآونة الأخيرة احتجاجاً على سوء المعاملة. والتفرقة العنصرية لم تقف عند حد الشارع، بل دخلت السجون ذاتها، فهؤلاء قد نقلوا معهم ما ورثوه في الشارع.

ولا شك أن هذا الأسلوب في التصرف من قبل المسجونين يشكل خطراً كبيراً على مفهوم السجون الحديث، الذي يسعى إلى تخريج مواطنين صالحين يعودون للمجتمع بنظرات إيجابية فيسهمون في السير به نحو الأفضل. هذا التصرف المعاكس حير القائمين على السجون، ونظروا إلى هذا المفهوم الحديث لها على أنه لا يعدو تنظيراً كتبه الباحثون وعلماء الجريمة والنفس والاجتماع ليضاف إلى مجموعات كبيرة من النظريات التي لا تتعدى الورق الذي كتبت عليه.

الظاهرة الجديدة:

وينشط المسلمون المقيمون في أمريكا نشاطاً واضحاً، بحيث تصل دعوتهم إلى السجون؛ لأن بعضاً ممن دخلوا الإسلام حديثاً قد طرق قضبان السجون في فترة من فترات الضياع التي عاشها، فينقل لإخوته الجدد الجو الذي عاشه ويعيشه أبناء قومه فيذهب فريق من المسلمين الجدد إلى المسؤولين عن أحد السجون فيعرضون عليهم فكرتهم وعواقبها

العملية النافعة. ويحدث أن يكون أحد مأموري السجن ممن عانوا من أحد أعضاء هذا الفريق فيسلم عليه العضو ويعتذر له عن تلك الفترة المظلمة من حياته، ويرى فيه مأمور السجن رجلاً آخر فيدرك أنه قد تغير بالإسلام، فيوافق مسؤولو السجن على أن يقوم هذا الفريق من المسلمين بعقد (ندوات) للمسجونين تكون دورية، ويكون هدفها الإصلاح، فيبدأ هذا الفريق بيوم الجمعة، حيث يجمع مجموعة من المسلمين ويهيىء لهم السجن موقعاً خاصاً يلقون فيه خطبة الجمعة والصلاة، ومن هنا تكون الانطلاقة، فغير المسلمين في السجن إنما حضروا للاستماع، مدفوعين بذلك من قبل مأموري السجن، وتكون النتيجة أن يسمعوا كلاماً له صدى عجيب ووقع على الأذهان والعقول غريب، فيواصلون التجمع حول أبناء قومهم ذوي الاتجاهات الجديدة، ويحضر هؤلاء معهم مجموعة من الكتب يزودون بها مكتبة السجن، فيها تعريف بالإسلام وترجمة لمعاني القرآن الكريم.

ومنذ بداية هذه الندوات والسجن يشهد تغيراً تدريجياً يميل إلى الهدوء والطمأنينة، فيرتاح مأموروه أكثر فأكثر، ويطالبون هؤلاء الدعاة بتكثيف نشاطهم، فيعمد هؤلاء إلى إقحام المسلمين الآخرين من عرب وهنود وباكستانيين وأمريكيين بيض فتبرز للجميع عالمية هذا الدين، ويبدأ الدخول في الإسلام شيئاً فشيئاً، وترفع التقارير عن حالة المسجونين وتغير كثير منهم، فتدعو السجون الأخرى المراكز الإسلامية والمساجد هناك إلى المساهمة في تهدئة السجون وإخراج جيل صالح من المسجونين إلى المجتمع يحقق النظريات التي جاء بها المنظرون ولكن بأسلوب عملي هادف بناء، فتصبح ظاهرة (أسلمة) السجون أمراً مسلماً به، ويصبح المسلمون الذين جرت بهم ظروفهم قبل إسلامهم إلى السجون يضربون المثل في الإيجابية والهدوء والتعاون مع مأموري السجن على تهدئة

الوضع كلما طارت شرارة معلنة قيام شغب في أحد هذه السجون.

دعوة السجون:

وتبرز في الأفق ظاهرة جديدة، هي ظاهرة الدعوة في السجون، فتصبح ظاهرة ذات طابع مميز تختار لها مقومات خاصة وينتخب لها أشخاص ذوو كفاءات دعوية منتقاة؛ لأن هذه الرقعة التي تضم فئة من الناس تعيش ظروفاً قد تختلف عن ظروف غيرهم وتحتاج إلى مراعاة ما هم فيه وما هم عليه.

ويتناقل الناس هذه الظاهرة وتكتب عنها بعض الصحف المحلية والنشرات التي تصدرها المجموعات الإسلامية ترصد فيها الإحصائيات، وتسترشد بآراء القائمين على السجون حول تأثير هذه الظاهرة الجديدة على سير أعمالهم. ويتطور الأمر إلى أن يصل إلى الدراسة الأكاديمية العلمية، حيث حضر في هذه الظاهرة الرسائل، وتبرز النتائج الإيجابية التي توصي في نهايتها بتكثيف هذا النشاط وتعميمه على الجميع.

ولم تتوقف الدراسات عند حدود السجن، ولكنها تابعت أولئكم الذين خرجوا من السجون بروح جديدة بدا عليهم أنهم لن يعودوا إليه كما جرت عادة أترابهم الذين لا يلبثون أن يعودوا إلى السجون بعد فترة قصيرة من خروجهم منها، معلنين بذلك فشل النظريات في إصلاح ما أفسدته تلكم المجتمعات من أبنائها. مثل هذه الدراسة أثبتت أن الذين اعتنقوا الإسلام في السجون خرجوا منها ليضموا إليهم مجموعات كانت «ضائعة» تبحث عمن يتبناها ويعطيها شيئاً من الاهتمام ويملي عليها قيمتها الإنسانية وإمكانية مساهمتها الفاعلة في بناء المجتمع. وكانت هذه العبارات تكرر لهم في السجون أكثر من مرة ولكنهم لم يلمسوهُ إلا عندما رأوا أن هذه القيمة يمنحها رب العباد لمن يريد أن يصل إليها، وليس هناك من يستطيع الوقوف في طريق من يريدون الوصول إليها. فأقبل على هذا الدين أناس

كثيرون إذا جالستهم وسردوا لك حياتهم قبل الإسلام لا تكاد تصدق أن يصدر عنهم ما صدر عنهم، إذ إنك تجد نفسك مع شخصيات مغايرة تماماً لما يصورونه لك.

ولم تقف الدراسات الاجتماعية على تتبع الأشخاص فقط، بل عمدت إلى دراسة الأحياء التي يغلب عليها طابع الفقر وتكثر فيها من أجل ذلك المشاكل. وقد صدرت دراسة أجريت على مجموعة من أحياء شيكاغو العريقة المعروفة بطابعها المميز، وخرجت هذه الدراسة بنتيجة أن الأحياء التي يغلب عليها الطابع الديني هي أقل أحياء مدينة شيكاغو من ناحية المشاكل وأقربها إلى الاعتدال والإيجابية، وفي مدينة شيكاغو مجموعات كبيرة من المسلمين. ولعلها تعد المركز الرئيسي لانطلاقة المسلمين المقيمين الذين يتسمون بأمة الإسلام.

هذه الظاهرة العجيبة لا تتوقف عند حدود مدينة واحدة أو ولاية، بل لعلها تشمل جل الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية التي تعيش فيها أقليات تعيش ذات الظروف التي تعيشها الأقليات الأمريكية، والذي أعلمه أن «اتحاد مسلمي شمال أمريكا» يولي هذه الظاهرة اهتماماً خاصاً، يعين بذلك المساجد والمراكز المحلية بتزويدها بالمطبوعات والدراسات، ويعقد لذلك الندوات ويشترك فيها ويساهم بجهد علمي ملحوظ وخاصة أنه اتحاد يجمع المسلمين في أمريكا على مختلف مستوياتهم العلمية والاقتصادية، ويقف شامخاً يؤدي دوره على وجه يستحق عليه الإعجاب، ولا يقف عند التنظير والإشراف، ولكنه يخصص لهذه الظاهرة مجموعة من الخبراء الذين مروا بظروف يمر بها اليوم نزلاء السجون، فيستفيدون من هذه الخبرة ويكون القبول منهم أكثر من القبول من غيرهم. وذلكم أسلوب تتطلبه مجالات الدعوة، فكان اللّه في عون الدعوة وكان اللّه في عون الجميع.

الموريسكولوجيا.. والامتحان الصعب!

والحديث هنا يحاول أن يلقي ضوءاً خافتاً على مجموعة غير يسيرة من المسلمين في الأندلس تعرضوا لصنوف من الامتحان؛ لأنهم مسلمون. ولم يذكر لنا التاريخ أنهم كانوا سبباً مباشراً أو غير مباشر لما تعرضوا له من الإهانة التي يخجل الأسبانيون اليوم من ذكرها أو التعرض لها. ويطلب العلماء منهم عدم التوسع فيها، من حيث الدراسة والبحث. ففي القرن العاشر الهجري تعرضت طائفة من المسلمين إلى التنصير القسري كحل من حلين وضعا أمام مسلمي الأندلس، وكان الحل الآخر مغادرة البلاد.. أي النفي والطرد والإبعاد من الأندلس ومراكزها العلمية ومكتباتها ومخطوطاتها وآثارها. أو آثار المسلمين فيها. وليت الخيار الثاني (الطرد) قد سمح معه بأخذ هذه الآثار العلمية. ولكن المسلمين كانوا يخرجون مجردين من كل شيء نافع حتى ليذكر الدكتور عبد الجليل التميمي في محاضرة له ألقاها في مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض الأسبوع الماضي أن مليون مخطوط عربي قد أحرقت في ساحة واحدة في وقت واحد وأمر بحرقها القسس والرهبان. أما الذين رفضوا الرحيل فلم يكن أمامهم ـ ظاهراً ـ إلا التنصر. وكانت هناك متابعة ومراقبة عجيبة لهؤلاء الموريسكيين، بحيث يحرق حرقاً من يعلم أولاده القرآن الكريم أو

اللغة العربية. ويحرق من يأوي مسلماً لم يتنصر ظاهراً على الأقل. ويحرق من يعين على تهريب مسلم خارج البلاد. ويحرق من يصر على الاسم العربي المسلم، وتحرق النساء أكثر من الرجال سعياً وراء التقليص من الإنجاب. وسعياً وراء التقليص من نشاط النساء الموريسكيات في الحفاظ على الخلفية الدينية لهن ولأزواجهن ولأولادهن.

ويسأل البعض عما إذا كان الدافع لهذا كله سياسياً أكثر منه دينياً في محاولة للتقليل من تعميق هذه المأساة، فيصر الدكتور التميمي على أن الامتحان الصعب هذا كان دينياً؛ وأن الأسبان متعصبون لكاثوليكيتهم، ولأن القسس كانوا يباشرون الإحراق والطرد، ولأن المسألة لم تكن للقضاء على العنصر العربي وإنما كانت للقضاء على الوجود الإسلامي، بدليل أن الدم العربي لا يزال موجوداً في أسبانيا والبرتغال وأمريكا الوسطى والجنوبية في الوقت الذي تلاشى فيه التأثير الإسلامي على المجتمع الأندلسي، ولم يبق من المسلمين إلا عدد قليل ليس مسجلاً رسمياً، وإن كانت هناك محاولات جديدة وجادة لعودة بعض الموريسكيين الأندلسيين إلى دينهم الذي ارتضوه. ولكنها محاولات متأخرة.

ومحنة الموريسكيين تحتاج إلى وقفات طويلة وعلمية وموضوعية بعيداً عن العاطفة التي لم تجد في حل القضايا المصيرية. وهذه الوقفات العلمية لن تجد من يعترضها، فوثائق ومحاضر محاكم التفتيش موجودة ومهيأة وتحتاج إلى من يتقن اللغة الأسبانية أولاً، ثم النبش في الكتابات الخمیالية المكتوبة بالحروف العربية واللغة القشتالية.

والعرب بخاصة والمسلمون عموماً متأخرون في دراسة هذه المحنة، حيث يثبت العالمون أن خمساً وتسعين بالمائة من الدراسات عن الموريسكيين (٩٥٪) صدرت عن غير المسلمين، حتى ظهر علم جديد

سموه الموريسكولوجيا (علم الموريسكيين)، بينما تقف مراكز البحوث وأقسام التاريخ والحضارة في الجامعات العربية قاصرة ومقصرة في هذا المجال، وقليلاً ما تجد أستاذاً ـ واحداً ـ أو اثنين متخصصين في تاريخ المسلمين في الأندلس، وإنما هي مجموعة من الخواطر الأدبية العاطفية، كالقصائد والكتابات السطحية السريعة ـ مثل هذه الحروف ـ تندب الحظ وتعض أصابع الندم وتولول على ما أصاب المسلمين في الأندلس وما يصيب غيرهم اليوم في بلاد إسلامية أخرى.

بل إن المعرفة باللغة الأسبانية أيضاً محدودة جداً في وقت نجد فيه أقساماً متكاملة التجهيز للغة الانجليزية وآدابها مثلاً.. وذلك على حساب الاهتمام باللغات الأخرى، كالأسبانية والتركية والفارسية والأردية وغيرها من اللغات المليئة بالمعلومات العلمية حول الإسلام والمسلمين والعرب والحضارة التي تستحق أن يلتفت إليها.

ولا عذر لنا اليوم في جميع الجامعات العربية والإسلامية ومراكز البحث العلمي، حيث توافرت تقريباً جميع الوسائل العلمية من المكتبات ومراكز البحوث وتوافر الاطلاع على الوثائق والمحاضر والمخطوطات التي وصلت إلى المكسيك وبيرو من أمريكا الوسطى والجنوبية حتى ليقال أن محاكم التفتيش قد زاولت أعمالها في هذين البلدين الذين كانا مستعمرين من قبل أسبانيا.. فتتبعت المحاكم الموريسكيين الأندلسيين في أمريكا الجنوبية والوسطى واستعملت معهم أساليب، منها الحرق ومصادرة الأموال والمقتنيات والطرد، في أن نبحث في جميع جوانب هذا التراث العربي الإسلامي.

وإذا كان العلماء الأسبانيون يتحفظون على هذه الحقبة من تاريخهم فإنهم يرحبون بالدراسات والبحوث وإلقاء المحاضرات وعقد الندوات وإقامة المؤتمرات حول الوجود الإسلامي في أسبانيا عموماً بما فيه

معالجة هذا الامتحان الصعب الذي تعرض له المسلمون «الموريسكيون الأندلسيون» خاصة في القرن العاشر الهجري حينما كانوا يساقون إلى الكنيسة ويُعمّدون قسراً وتُغيّر أسماؤهم إلى الأسبانية حتى لتجد اسم الشخص «فيليب» واسم أبيه «روبيرتو» واسم جده الأول «ارنستو» واسم جده الثاني «بلاثيوث» واسم جده الثالث عبد الرحمن بن محمد العامري. وتتردد هذه الأسماء لمسلمين ولا نعرف أنهم مسلمون، وهكذا أريد لهم ألا يعرفوا إلا بأنهم أسبانيون.

نحن بحاجة إلى التركيز على مثل هذه الجوانب من تاريخنا لنوضح عملياً للآخرين ما قوبل به المسلمون من قبل النحل والملل الأخرى في الوقت نفسه الذي قابل به المسلمون أصحاب هذه الملل والنحل من منطلق ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾ والله المستعان.

الجزيرة العدد ٥٧٢٨

السبت ٢٠ شوال ١٤٠٨ هـ ـ ٤ يونيه ١٩٨٨ م

أذان المغرب.. في أمريكا

قد تسمع أو تقرأ أن حدثاً ما في أمريكا يهم العرب أو المسلمين. فهناك من يقول عرض في التلفزيون الأمريكي، أو عرضت الإذاعة الأمريكية أو نقلت صحيفة أمريكية حدثاً من الأحداث. أو نقلت المحطة العربية في أمريكا أذان المغرب في شهر رمضان المبارك.

والحديث عن أمريكا غالباً ما يأخذ جانب التعميم، فأمريكا قارة غير صغيرة مكونة من خمسين ولاية، لكل ولاية نظامها وإذاعاتها وتلفزيوناتها وصحفها، وكل ولاية عبارة عن مجموعة من المقاطعات، وفي كل مقاطعة مجموعة من المدن. والإذاعة المسموعة في مدينة قد لا تكون مسموعة في المدينة الأخرى من المقاطعة ذاتها، فما بالكم بالولاية وما بالكم بأمريكا.

والذي يحدث أحياناً أن مجموعة من المسلمين يستأجرون وقتاً في الإذاعة أو التلفزيون المحلي يذيعون أثناءه برامج إسلامية وعربية فيراها أحدهم ويكتب عنها على أنها ظهرت في الإذاعة أو التلفزيون الأمريكي. وتشهد منطقة واشنطن العاصمة إعلان أذان المغرب مسجلاً وقت المغرب من كل يوم من أيام رمضان. ولكن الأذان لا يسمع من الإذاعة إذا خرج المرء عن منطقة واشنطن. وفي المنطقة ذاتها محطة تلفزيون تؤجر ساعات

للعرب ولمجموعة من المسلمين وللهنود وللإيرانيين والصينيين واليابانيين. . . وهكذا ولكن برامجها لا تخرج عن منطقة واشنطن، ولضخامة البلاد وكثرة محطاتها وصحافتها لزم التنويه على أن التعميم غير وارد هنا، ولا يمكن مثل هذا التعميم إلا إذا عرض الموضوع من خلال شبكة تلفزيون أو إذاعة تعرض على مستوى البلاد. وهناك مجموعة من الشبكات التي تغطي أمريكا نقرأ عنها ونسمع منها ، وأهمها أربع شبكات هي الـ (أي، بي، سي - وسي، بي، إس، وإن، بي، سي - وبي، بي، إس). بالإضافة إلى محطة الأخبار (سي. إن. إن) التابعة لرجل الأعمال المعروف تد ترز، الذي يملك مجموعة من المحطات وفرق الرياضة في أتلانتا/ جورجيا. وإذا ما عرض برنامج في هذه الشبكات فيمكن عندها أن يقال عرض في التلفزيون الأمريكي مع شيء من التحفظ.

الجلوس مع الأولاد:

وما دمنا ندور حول أمريكا فإن هناك أسلوباً يعتمد على استئجار بعض الشباب من الفتيات - عموماً - للجلوس مع الأولاد بينما يذهب الوالدان إلى شأن من شؤونهما، إما للعمل أو لبرامج ترفيهية. وفكرة الجلوس مع الأولاد فكرة شائعة وغير جديدة. وهناك من يرحب بها كحل مؤقت، وهناك من يحذّر منها بسبب من سوء معاملة الأولاد من قبل الجالسين معهم.

وفي يوم من الأيام عمد الطفل الصغير الذي يبلغ حوالى الرابعة من عمره إلى محاولة صفع أخيه الصغير جداً الذي لم يصل عُمره إلى السنة الواحدة. وكان هذا بمرأى من والدته. فمنعته الوالدة وسألته عن سبب

هذا التصرف فقال لها: إن فلانة «التي تجلس معه ومع أخيه» تعمل هذا مع الصغير كل يوم تقريباً فانقلبت الدنيا في عيني الوالدة، وفكرت كثيراً ولكنها ولأنها لا تملك الدليل المحسوس لا تستطيع رفع دعوى على الفتاة التي تجلس مع ولديها. فما كان منها إلا أن نصبت آلة تصوير «فيديو» في صالة الجلوس حيث تجلس الفتاة عادة مع الطفلين، وأخفت الآلة بحيث لا ترى. وقبل خروجها أدارتها وتركتها وخرجت إلى شأنها.

تعود الأم من العمل وتستلم ولديها من الجالسة معهما وعيون الصغير حمراء من كثرة البكاء وتحتج الجالسة بأن الطفل بدأ الصياح قبل لحظات من وصول الأم. فتذهب الجالسة لشأنها وتعود الأم إلى آلة التصوير وتعيد إدارتها، ويا لهول ما ترى. ترى الفتاة تصفح الرضيع صفعات قوية جداً مملوءة بالحنق والحقد والخروج عن طور الإنسانية، لم تكن الصفعات واحدة أو اثنتين بل الذي لقطته آلة التصوير ثلاث صفعات تمزقت معها قلوب الذين شاهدوا هذا الموقف.

عرض هذا الموقف في إحدى شبكات التلفزيون (سي، بي، إس) ورآه عدد غير قليل من المشاهدين، فلم يكن منقولاً من محطة محلية وأجريت المقابلة مع الأم وعرض مرة أخرى وقبض على الجالسة للأطفال وأودعت السجن، ولكنها وحسب نظام السجن في أمريكا عموماً تستطيع الخروج بكفالة حتى يحين وقتها ومحاكمتها، وإذا وفقت لمحام نشطٍ متحدث خرجت من هذا الموقف ببراءة أو بعقاب يسير جداً. وقد أهدت محطة التلفزيون هذا المنظر إلى كل والدين يتركان أولادهما مع هؤلاء الأجراء ويذهبان للترفيه وقتل الوقت.

ومن الصعب جداً التعليق على مثل هذا المنظر، فالصورة كانت تعبيراً تعجز عنه آلاف الكلمات.

البث المباشر:

وفي الولايات المتحدة الأمريكية تقليد يقوم على استخدام فكرة البث المباشر على المستوى الوطني. فهناك شبكات المحطات التي تبث مثل هذه البرامج على مستوى الإذاعة والتلفزيون. والناجح منها هو ما يثبت بالإذاعة حيث ينصب شخص نفسه ولمدى ثلاث ساعات يجيب على أسئلة المتحدثين. ثم ثلاث ساعات أخرى تكون خاصة للمشكلات الاجتماعية، بينما كانت الثلاث الأولى لمشكلات العمل، وهناك ثلاث ساعات أخيرة تبدأ من الواحدة صباحاً إلى الرابعة منه ويغلب عليها الجانب النفسي.

والغرض من إيراد هذا الأسلوب هنا هو أن المتابع لهذه البرامج المباشرة يستطيع الخروج بمعلومات حية عن هذا المجتمع وما يعتريه من مشكلات، لو أن هذه البرامج على مستوى البلاد فهي تعطي المتابع القدرة على التعميم في الحكم على البلاد وأهلها. ولا يستطيع المرء الخروج من هذه إلا بأن يأسف على هذا المجتمع الذي يزداد تمزقاً يوماً بعد يوم. وطبيعة المشكلات تقوي مثل هذا الحكم. وأقرب مثل لهذه المشكلات أن تهاتف مقدمة البرنامج فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها وبعد الساعة الواحدة وتشتكي إليها أن أباها يسيء معاملتها إلى درجة أنه يريد أن يغتصبها، وحيث إنه لا أم لها تطلب منها مقدمة البرنامج أن تتصل بمدرستها في اليوم التالي. فتتصل الفتاة الصغيرة بمدرستها وينتهي بها الأمر أن تؤخذ من أبيها وتوضع في بيت لمثل هذه الحالات ويؤخذ أبوها تحت عناية الشرطة حتى تتم محاكمته، كل هذا ومقدمة البرنامج تتابع هذه المسألة أولاً بأول وتخبر المستمعين بها.

ومن هذه الحالة تبرز حالات أخرى أو تتصل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وتخطر مقدمة البرنامج أن عمها يحاول معها كما حاول أبو

الفتاة الصغيرة مع ابنته، وما دفعها للمهاتفة إلا عندما سمعت بقصة الفتاة الصغيرة. وتعلق مقدمة البرنامج بأن مثل هذه الحالات كثيرة ولن تعرف إلا إذا كانت هؤلاء الصغار يملكن من الشجاعة ما يجعلهن قادرات على إظهار مثل هذه المشكلات على السطح.

ولا يقتصر الأمر على الصغيرتين ولكن كبار السن ليسوا أحسن حظاً من الصغار، وما الرجال بأحسن حظاً من النساء ليس على المستوى العاطفي فحسب، بل على مستوى التعامل مع الآخرين والوقوع في مزالق عند التعاقد على عمل شيء أو شراء سلعة أو التمتع بإجازة.

ذلكم جزء من المجتمع الأمريكي يتعرف عليه من يتابع مثل هذه البرامج التي تشكل جزءاً من التعايش مع هذا المجتمع. ولن يتعرف عليه بحق إلا من يعايشه ويتعمق في عاداته وتقاليده وأساليب التعامل فيه لا ليتبناها، ولكن ليعرف الناس من خلالها.

خامساً: في التصير

زمزم .. في كليفلاند!!

في عام ١٤٠٠ هـ يناير عام ١٩٨٠ م قدمت إلى مدينة كليفلاند بولاية أوهايو عازماً ـ بعون اللّه ـ البدء في المرحلة الأخيرة من الدراسة. وكنت قد انتقلت من ولاية فلوريدا في الجنوب وسحبت معي متاعي في قاطرة وتجوَّلت ـ ضائعاً ـ في أشهر شارع في المدينة وهو شارع إقليدس الذي يشق المدينة شرقاً وغرباً.

وعندما قربت من وسط المدينة وجدت على اليمين بناية جميلة جداً وحديثة جداً مطلية بالرخام على الطريقة التي شاعت في بيوتنا. وأمامها حديقة صغيرة. وعلى جانبها مواقف. وكتبت أمامها لوحة قائمة على الأرض «مسجد القرآن». قلت في نفسي: ما شاء اللّه، يبدو أن حركة المسلمين هنا نشطة وغنية إلى درجة الوصول إلى هذا المبنى الجميل في مكان مناسب. وعقدت العزم على زيارة مسجد القرآن في أقرب فرصة بعد أن أحطَّ الرحال.

وفي يوم الجمع تزينت وتطيبت ولبست من الثياب أحسنها وذهبت قريباً من وقت صلاة الجمعة. وأردت إيقاف سيارتي في المواقف، فطلب مني رجل يقف في مدخل المواقف دولاراً فدفعت الدولار رغم أني أعلم أن المساجد والمراكز الإسلامية لا تأخذ مالاً من المصلين إلا بالتبرع

والإنفاق الحسن. ولكني قلت في نفسي، لعل الإخوة يمرون بضائقة مالية شأنهم شأن المراكز والمساجد الأخرى!!

ترجلت وقصدت المسجد فقابلت رجلاً وفي فمه «غليون» فقلت لعل هذا المكان الذي يدخَّن فيه صاحب الغليون ليس من حرمة المسجد. فتماديت قليلاً فوجدت امرأة تنظف جزءاً من المكان وقد حسرت عن ساقيها، فدخلني الماء وبدأت أشك فيما أنا فيه. فسألت صاحب الغليون: أين المسجد؟ قال: هذا المسجد. قلت أين الصالة ـ أقصد صالة الصلاة؟ فأشار إلى صالةٍ ملئت بالطاولات والكراسي! قلت: عفواً، أين مكان الصلاة؟ قال: آه أنت مسلم!! قلت: نعم. وهذا مسجد. قال: لا، ليس هذا مسجدكم. هذا نادٍ ماسوني والمعبد الماسوني هو البناية الكبيرة المجاورة له. قلت: ولم يسمونه مسجد القرآن؟ قال: إن الذي أنشأ النادي ذو خلفية عربية فسمَّاه بذلك. لكن إذا أردت المسجد فما عليك إلا أن تستمر في الشارع هذا غرباً إلى أن يأتيك المسجد على يدك اليمين. وأعطاني رقم بناية المركز الإسلامي في المدينة. واتجهت إليه على عجل، فوصلته ووجدته على ما اعتدته من المراكز الإسلامية ـ في الغالب ـ بناية قديمة، المواقف حولها غير منتظمة، وتعطي للآخرين صورة ليست هي الصورة التي نريد أن نعطيها لهم. واللّه المستعان.

زمـــزم:

وفي صيف العام نفسه ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م أردت العودة إلى الوطن الحبيب فنزلت إلى وسط المدينة قصداً إلى التبضع من الهدايا المتواضعة للصغار من إخوتي. ووجدت الشارع المذكور ـ إقليدس ـ قد أغلق فأوقفت السيارة بعيداً عن الوسط وذهبت ماشياً إلى حيث المتاجر الكبيرة. وذهلت عندما رأيت الناس متجمهرين على طرفي الشارع، فأنظر

فأرى عرضاً لجمعيات لها لباس خاص قريباً باللباس العربي التركي. وتمر كل جمعية يتقدمها اسمها فإذا هي جمعيات تحمل أسماء إسلامية، مثل زمزم، والهدى، والإسماعيلية، ومكة، والمدينة والقدس، والزهراء وغيرها من الأسماء المألوفة.

وكان بجواري عجوز كبير وأنا أرقب هذه المشاهد التي بدا فيها النساء على شكل «الحريم» في السينما الغربية، وبدا فيها الجلاَّد ومعه سيف كبير، وبدا فيها الوالي أو الخليفة وحوله المهرجون. وبدا فيها مناظر تعين على إساءة السمعة عن العرب والمسلمين أكثر مما هي عليه من إساءة. فسألت العجوز مختبراً: من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء جمعيات خيرية تهتم بالأطفال المعوقين والعجزة. وتخدم المجتمع خدمات جليلة. قلت له: أليس لها أهداف أخرى؟ فقال: أبداً بل هي جمعيات خيرية، قلت: إذاً لماذا هذه الأسماء الغريبة؟ فلم يجبني العجوز الكبير لأنه لا يعرف الإجابة.

ويسمي هؤلاء أنفسهم بالمنتمين إلى الأماكن المقدسة (!) «Shriners» ولهم في كل مدينة فرع أو فروع، حتى وجدت في المدينة نفسها لهم أكثر من فرع، فرع للبيض وآخر للسود. وهم يمثلون أندية الماسونية ويقرب من كل نادٍ معبد لهم.

ابني الصغير:

وفي ١٤٠٢/١١/١٢ هـ - ١٩٨٢/٨/٣١ م رزقت بمولد ذكر كان باكورة الإنتاج سمَّيته «حمد» تيمناً بجدي حمد - عليه رحمة الله ورضوانه - وفرحنا به كما يفرح الأهل بمولودهم الجديد. وفي أيامه الأولى وجدت رجلاً يتصل بي ويسألني زيارته لي! فأسأله: وما المناسبة؟ فنحن في أمريكا، وقد تركنا حاتماً الطائي في ربوع البلاد فغلقنا الأبواب ومسحنا

سمة الكرم إلا لمن نعرفهم. فأجابني أنه مندوب عن جمعية في الحي الذي نعيش فيه وأنه يرغب في أن يعرض عليَّ العضوية. فذكرت له أني غير راغب في العضوية. لكنه أصر على إعطائه موعداً. فاحترمت إصراره وأعطيته موعداً. فجاء وأعطاني فكرة عن الجمعية التي سماها «المنتمون إلى الغابة» «Foresters» وأكد أنهم لا يحملون من الاسم إلا لفظه لا معناه، وأنهم يؤمنون بحرية الدين، وأن الإنسان العضو في جمعيتهم له شأنه في معتقده. وأحضر معه فيلماً تصويرياً عن بعض أنشطتهم. ثم طلب أن يطرح عليَّ أربعة أسئلة والإجابة عليها بالإيجاب كفيلة بأن تفتح لي المجال أن أكون عضواً في الجمعية. فقلت اسأل. فسأل السؤال الأول: هل ترغب في أن نضمن تعليم ابنك من الروضة إلى أن يتخرج من الكلية؟ قلت: لا فالله هو الذي يضمن لي ذلك. قال: إذاً لا أسألك البقية. قلت: بل اسأل. قال: هل ترغب في أن نضمن لك بيتاً على شواطىء فلوريدا أو كاليفورنيا عندما تحال إلى التقاعد؟ قلت: لا وتذكرت دعاء آسية زوج فرعون: ﴿**رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة**﴾ ولم أقرأ الآية عليه، إلا أني أشعرته أني لا أنوي الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة الأمريكية. فَلَمَّ أوراقه بعصبية وهمَّ بالخروج وهو يتمتم بكلمات. ولكني دعوته إلى أن يسأل السؤالين الباقيين. ولكنه رفض وأبدى لي أني لا أصلح عضواً في جمعيتهم على أي حال. وأسفت أني تسرعت بالإجابة على كل سؤال على انفراد. وكنت تمنيت أن لو تركت الرجل يسأل الأربعة ثم أجيب عليها. بل ربما أعطيته وقتاً أوهمه أني سأفكر في الأمر مع أهلي. ولكني تسرَّعت فضاع مني السؤالان الباقيان اللذان لا أظن أنهم يقلان إغراءً عن السؤالين الأولين.

النتيجـــة:

هذه بعض الممارسات التي عايشتها خلال فترة محدودة. ذكرني بها

كتاب صائد الجواسيس "Spy Catcher" لبيتر رايت، الذي حدَّد فيه أنه يجب على كل من يعمل في هيئة الاستخبارات البريطانية أن يكون ماسونياً، فاستعرضت ما رأيته من هذه الأنشطة والمحاولات في استمالة بعض الطلبة «الأجانب» الذين يتوقَّع لهم أن يكونوا ذوي تأثير فعَّال في ديارهم عندما يعودون إليها. ولذا فإن من الحكمة أن تتقرب منهم هذه الجمعيات والنوادي الماسونية في سبيل أن توجد لها أوكاراً في البلاد الأخرى، وخاصة منها التي لا تسمح بحال بإقامة هذه النوادي التي تحت أي اسم، ووجدت في النهاية أن هذا نوع من أنواع «الاستهداف» التي يتعرض لها الطلبة العرب المسلمون. الأمر الذي يقتضي مزيداً من الحيط والحذر من قبل هؤلاء الطلبة. فكان اللّه في عونهم، وكان اللّه في عون الجميع.

بين اليتامى .. والأيامى ..

الحروب فتنة وبلاء.. لا تأتي على شيء أتت عليه إلا خلفت فيه المصائب.. تسحب زهرات الحياة من الرجال والشباب.. وتخلف وراءها الأطفال والنساء.. تُيتِّم الأطفال.. وتثكل النساء.. وتتركهم دون عائل.. ويكثر العدد من النوعين.. ويضاف إليهما نوع ثالث محصور على كبار السن ممن يحتاجون إلى عائل كذلك. وبذا ينشأ مجتمع عالة.. لا يملك مقومات الاسترزاق.. ولا يقدر الصبر على شدائد الحياة.. ثم يفد إلى هذه الأنواع الثلاثة نوع رابع تلفظه الحرب عندما تعلن له أنه غير صالح على الساحة بعد أن تعيبه جسمياً أو فكرياً.. فيعود معاقاً قطعت رجلاه أو واحدة منهما، أو يداه، أو واحدة منهما، أو هزته الحرب فأطارت فكره وتركته أشد اعتماداً على غيره من الطفل الرضيع. فهذه فئات أربع تخلفها الحروب وتلفظها على مجتمعها أو على المجتمع الدولي ليقوم المجتمع بمحاولاته الموجهة ـ أو غير الموجهة ـ إعالة هذه الفئات الأربع وإعادة اعتبارها لها من خلال إقامة المؤسسات الرعوية من مدارس للأطفال، ومجالات عملا للأرامل، ومراكز تأهيل للمعاقين.. وربما وسيلة للإفادة من كبار السن من الرجال والنساء.. قصداً إلى شغل الوقت وتقصيره على هذه الفئة من ضحايا الحرب.

وفي هذا المجتمع غير العادي تبرز الجمعيات الخيرية المحلية والإقليمية والدولية تتسابق في تقديم يد العون لهذا المجتمع.. والجمعيات الخيرية من خلال المتابعة جميعها جمعيات موجهة، تحمل مع مشروعات البر والخير المادي شيئاً مما تدين به ـ أو تدين به مجتمعاتها ـ حتى الجمعيات الرسمية الدولية التابعة لمنظمات دولية تحمل معها الأفكار تحاول غرسها في هذا المجتمع.. ولا بد أن تكون هناك محاباة.. ولا بد أن تكون هناك خطط تبرز فيها قوة التأثير من عدمه.. ويذكر أن إحدى المنظمات الدولية كانت تفرق في توزيع مواد الإغاثة بحيث تخص بها ذوي العقيدة التي تدين بها هذه المنظمة على حساب ذوي العقائد الأخرى.. ويذكر أيضاً أن السلاح كان مدسوساً في مواد الإغاثة التي أرسلت من منظمة دولية إلى جنوب السودان...

أما إذا لم توجد فروق عقدية في المجتمع المحتاج إلى إغاثة فإن الأفكار والعقائد الغريبة على هذا المجتمع تصحب مواد الإغاثة بحيث تصبح هذه الأفكار أكثر وضوحاً من العقيدة التي يؤمن بها المجتمع المنكوب. وفي أفغانستان اليوم أكثر من مائة جمعية ظاهر عملها الإغاثة.. وتعمل في الباطن في حملات التنصير.. ويقابل هذا العدد في المجتمع الأفغاني الملتزم ما لا يزيد على عشرين جمعية خيرية إسلامية تنشر أفكارها مع مشروعات الإغاثة.. وانتشار الجمعيات الإسلامية في مجتمع مسلم أمر طبيعي كانتشار الجمعيات التنصيرية في مجتمع من النصارى المسيحيين فهو كذلك أمر طبيعي.. ولكن غير الطبيعي أن تنتشر الجمعيات التنصيرية في مجتمع عرف بالتزامه.. ووقوفه مدفوعاً بهذا الالتزام أكثر من اثني عشر عاماً في وجه الأفكار المناقضة لأفكار هذا المجتمع الملتزم..

وهنا لا بد من تسجيل موقف.. إذ هناك من ينظر نظرة خاصة إلى

هذه الجمعيات التي تملأ الفراغ في المجتمعات المنكوبة.. وهناك من يريد ـ مثالياً ـ أن تكون مواد الإغاثة ومشروعاتها خالية من الأفكار أو خالية من خيوط الربط الموصولة بين الجمعية والمجتمع على أساس من الأفكار.. ولا أظن هذه النظرة واقعية؛ لأن عدم الربط غير وارد، ولن يرد في مجتمع دولي أصبحت الأفكار هي المسيِّر للمجتمعات.. وأصبح تصديرها مهمة تحتل المراتب الأولى في سياسات الدول والمنظمات والهيئات..

والأولى من هذا أن يسدَّ الطريق عملياً على هذه الجمعيات من خلال إيجاد البديل في المجتمع المسلم أولاً.. إذ إن هذا المجتمع المنكوب لن يقبل من الغريب ما دام ما يريده من حاجة متوافرة له من أبناء جنسه وعقيدته.. وما لجوء المجتمع إلى الآخرين إلا لأن البديل غير موجود، أو أنه موجود لكنه لا يصل إلى مستوى الوجود الأجنبي من حيث الإمكانات والمعاملة والتنسيق كذلك.

وليس المجال هنا بالملمح إلى الالتفات إلى إغاثة المسلمين أولاً قصداً إلى سد الطريق على التأثير الأجنبي على حساب إغاثة بقية المنكوبين.. فالمطلوب أكثر من هذا.. ولكن الأولويات لا بد أن ترسم.. والدراسات لا بد أن تجرى لوضع الخطط في مجالات الإغاثة.. ولا بد من إدراك أن الصراع العقدي يدخل مع مواد الإغاثة حتى لا يخدع الناس بالجانب الخيري فيها فقط.. وعلى أي حال فالموقف لا يزال غير واضح.. والنقاش هنا قائم.. وشيء منه يقوم على مفهوم اليأس من إمكان إيجاد البديل بالإمكانات نفسها.. وبالروح نفسها.. وبالمعاملة نفسها.

ولكننا نعلم من خلال استمرار قيام الجمعيات الخيرية وكثرتها.. ومن خلال الوعي المستمر في طرق الإغاثة.. ومن خلال التدفق على

هذه الجمعيات من قبل الشباب المتطوعين.. ومن خلال مؤشرات أخرى كثيرة.. نعلم أنه لا مجال لليأس في هذا المجال وفي أي مجال غيره.. فالصورة أحسن مما كانت عليه من قبل.. وهي تتحسن مع الأيام.. وتكاد تبدأ في الوقوف على قدميها بديلاً للجمعيات الأجنبية التي تنقل مع الخير المادي فكرها الغريب.

اليتامى.. والتنصير!

ويسميه البعض التبشير ترجمة حرفية للمصطلح الذي شاع منذ فترة غير قليلة من الزمن. والحق أن هذه الظاهرة تسهم في إضعاف أمة الإسلام من خلال استقطاب مجموعة من أهلها وإخراجهم عن الدين الإسلامي الحنيف أو تستهويهم إلى نظريات منحرفة أخرى. وتشير محاضر اجتماع المنصرين إلى هذا الأسلوب بعد أن عيي مجموعة من المنصرين فيما يتعلق بتحويل المسلمين إلى النصرانية.

لقد وجدت أن جامعات أمريكا جميعها تتفق في إرسال مجموعات من المتطوعين إلى بلاد «العالم الثالث» ليس بالضرورة تحت اسم البعثات التبشيرية أو التنصيرية، ولكن تحت أسماء أخرى مثل «فيالق السلام أو فيزا» أو غيرهما مما يديرها مجموعة من المنصرين تمولهم في ذلكم الكنيسة. ووجدت أنهم دعوا مجموعة من طلاب الجامعات للإقامة أثناء إجازة عيد الشكر (الخميس والجمعة والسبت والأحد) عند عائلات في الريف الأمريكي طابعها التدين. فتأخذ الشباب إلى الكنيسة ليصلوا مع المصلين ثم ليأكلوا جميعاً «الديك الرومي» الذي يسمونه هناك بالتركي وللتسمية مغزاها. ووجدت أن «دعاة» التنصير يطرقون بابنا في أمريكا ليقدموا لنا نسخة من الإنجيل باللغة العربية في مكان يتعذر فيه الحصول على الكتاب باللغة العربية.

ووجدت أن شخصاً قابل مجموعة من الشباب المسلمين الجدد على البعثة وقدم إليهم خدماته في سبيل أن يدعوهم إلى رحلة تقوم بها الكنيسة، فيذهبون في الرحلة ويجدون أنفسهم يدعون مرة أخرى لحفل يقام في الكنيسة ذاتها، فيحجمون ويقطعون علاقتهم بصاحبهم الذي تكبد معهم كثير من المشاق. ولم ييأس فتوجه إلى غيرهم ممن هم أكبر من أولئك سناً وأكثر منهم إدراكاً، ولكنه لم يجد عندهم ما يبحث عنه فتركهم وبحث عن غيرهم.

ووجدت أن صناديق البريد لا تكاد تخلو من مجموعة النشرات التنصيرية، ولاحظت أنهم في هذه الحالة تجنبوا رسم «الصليب» على منشوراتهم لعلمهم بردة الفعل الآنية للمتمسكين بإسلامهم تجاه الصليب.

ووجدت أن أشخاصاً استغلوا علمهم وخبرتهم في سبيل تحقيق بعض أهداف التنصير ولكن كثيراً من الحكومات الإسلامية لم تترك لهم فرصة عندما تأكدت مما يقومون به من أعمال تتنافى ومشاعر المسلمين.

ووجدت أن الأمر قد وصل إلى حد يجب الوقوف له وقفات علمية مدروسة خالية من سيطرة العاطفة سيطرة تامة. بحيث يبدأ ـ عملياً ـ رد موجات التنصير التي تنتشر الآن في كل مكان. ويذكر الأستاذ الدكتور محمد يحيى ساعاتي في حديث له عن التنصير أن التخطيط التنفيذي قائم على الوصول إلى هدف مؤداه تنصير بلد إسلامي كبير في شرق آسيا تنصيرا كاملاً بحلول عام ٢٠٠٠ ميلادي، ويذكر أن «البابا» سئل عن هذا المشروع فلم يجب عنه بالنفي أو الإثبات، والكل يعلم أن تلك البلاد الإسلامية الآسيوية الشرقية تكتنف أكبر مجموعة من المسلمين عدداً في شرق آسيا، أي أنها أكبر دول المسلمين من حيث عدد السكان. ويذكر الزميل أيضاً أنه قد قام مركز للمعلومات التنصيرية في سويسرا يرسل الوثائق لمن يطلبها مسجلة على الأفلام المصغرة المايكروفيش.

مركز المعلومات:

ومن هنا ومن إيحاء هذا الحديث الذي قدمه الزميل لمجموعة من أبناء التعليم العالي من أعضاء هيئة تدريس وجدت أن إقامة مركز معلومات مكافحة التنصير لعله يعد أول خطوة يمكن فيها العمل على مواجهة هذه الظاهرة. ولا أدعي هنا أنه ليست هناك جهود في هذا السبيل، ولكن هذه الجهود لا تزال في بدايتها من حيث الأشخاص والإمكانات والدعاية والتخصصات. ومن مركز المعلومات يستطيع المهتمون أن يقدموا المراسلات التي تعين القائمين اليوم والذي سيقومون غداً على تشخيص هذه الظاهرة واتباع أفضل السبل في سبيل الوقوف أمامها ومن ثم إيقافها.

ولست بصدد ذكر مقومات مركز المعلومات هذا، ولكن يكفي التنويه إلى الحاجة إليه في مكان تتركز فيه الجهود في جمع الوثائق والكتب والمقالات والدوريات، بل والأفلام التي تعالج مثل هذه الفكرة، وليس المقصود هنا الاكتفاء فقط بما كتب عن هذه الظاهرة في سبيل التنبيه، لها، ولكن أيضاً رصد جميع - أو جل - الوثائق التي تتحدث عنها من وجهة نظر القائمين بها والداعين لها على جميع المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية.

ولعل خير مكان يمكن أن يقوم به مثل هذا المركز هو محيط الجامعات، حيث الجو العلمي «الأكاديمي» الذي يحقق المقصود من النظر إلى ظاهرة التنصير نظرة علمية ثابتة تأثيرها يمتد إلى البعيد ولا يقتصر على التأثير الوقتي الناتج عن خطب عاطفية أو محاضرات متقطعة هنا وهناك.. ومع أن هذا النوع الأخير مطلوب في سبيل التنويه إلى هذه الظاهرة، ولكن العائد منه لن يكون في قوة العائد من مركز المعلومات الذي تدعو إليه هذه الفكرة في محيط جامعة من جامعات هذا البلد الطاهر.

التنصير واليتامى:

والحق أنه كما ألمحت من قبل فإن منطلقات المنصرين ليست صريحة بقدر ما هي ملبسة بلباس الاهتمام بمنكوبي الحوادث الطبيعية والبشرية كالمجاعات وضحايا الفقر والحروب.

وعليه فلا بد من التأكيد على جمع المعلومات عن «جميع» الجمعيات الخيرية التي تديرها مؤسسات دينية في البلاد الإسلامية والبحث عن الدوافع وراء هذه الحملات التي تقوم بها هذه الجمعيات.

وإذا كان البعض سيرى في هذا إفراطاً أو تجاوزاً في الحكم على كل الجمعيات فما عليه إلا أن يقرأ أهداف هذه الجمعيات وتفسير هذه الأهداف ليرى مصداق ما يدعى هنا. وجمع المعلومات عن هذه الجمعيات وغيرها لن يتم بشكل علمي متسق مستمر إن لم يتبن الفكرة مركز للمعلومات يرصد كل ما يدور حول هذه الأساليب فيوفرها للباحثين والدارسين الذين يقدمون النتائج والتوصيات والمقترحات من خلال ما يقومون به من بحوث ودراسات.

وكنت في الأسبوع الماضي قد تحدثت عن كفالة اليتامى الأفغان في معسكرات المهاجرين في مقاطعة بيشاور وعلمت بعد الحديث أن المؤسسات التنصيرية تسعى إلى تقديم بعض من جهودها لهؤلاء اليتامى وأمهاتهم في سبيل الحصول منهم على إشارات توحي بتخليهم عن دينهم، كما نجح المنصرون في بلد مسلم شرق آسيا آخر في إخراج ما لا يقل عن مليون مسلم من الإسلام نتيجة ما قدم لهم من مواد يسدون فيها فاقتهم ويتقون بها برد الشتاء القارس.

كل هذه المعلومات الواردة هنا يتضح منها أنها تجمع من هنا وهناك تنقصها البراهين والدلائل عليها. وكنت أود أن أدعمها بما يقويها من

إحصاءات وأرقام وتواريخ وحوادث لولا ضيق ذات اليد في المعلومات عن هذه الظاهرة. مما دعاني إلى التأكيد على فكرة مركز المعلومات المذكور لعل أن يكون فيه خير يسهم من خلاله أهل الخير في رعاية أبناء أمتهم في كل مكان من فقدانهم معنى الحياة والغرض منها وتنبيه الغافلين من الذين تنقصهم الخلفية الدينية القوية إلى أن الهدف من الحياة ليس منصباً على لقمة العيش بقدر ما تكون لقمة العيش عوناً على تحقيق العبودية للّه وحده. وتحقيق العبودية للّه وحده وراء التزامات كثيرة مادية وعلمية. وعلى أهل العلم التزاماتهم وعلى أهل المال التزاماتهم، وكأني بأهل المال ينتظرون أهل العلم ليقدموا لهم أفضل الطرق لبذل المال في وجوه الخير ومنها الاهتمام بأبناء المسلمين في سبيل إبقائهم على دينهم.

«الجزيرة» العدد ٥١٨٩

السبت ١٢ ربيع الآخر ١٤٠٧ هـ الموافق ١٣ ديسمبر ١٩٨٦ م

التنصير.. مرة أخرى

يصل عدد الذين يعملون في بعثات التنصير في كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية إلى أكثر من ستمائة ألف عامل (٦٠٠,٠٠٠)، نصف مليون منهم (٥٠٠,٠٠٠) من الكاثوليك مدعومين من الفاتيكان ويزيد عدد المدارس التابعة لهم في العالم عن ثمانية وخمسين ألف مدرسة (٥٨,٠٠٠)، أما المعاهد فتزيد عن ستة وعشرين ألف معهد (٢٦,٠٠٠)، ويزيد مجموع الإعانات التي توزع على هذه المدارس والمعاهد والمستشفيات والمخيمات عن مائة وعشرين مليون دولار في العام الواحد.

وغالبية القادمين من الولايات المتحدة الأمريكية من المنصرين البروتستانت حيث يزيد عددهم عن الخمسين ألفاً (٥٠,٠٠٠) وتشكل نسبة المنصرين الكاثوليك القادمين من الولايات المتحدة حوالى ٣٠٪ من المجموع الكلي، كما تشكل نسبة المنصرين عموماً القادمين من الولايات المتحدة أكثر من ١٠٪ من المجموع الكلي للمنصرين في العالم والبقية موزعة على أوروبا في الفاتيكان وبريطانيا وفرنسا وهولندا وبعثات محدودة من سويسرا وبلجيكا والسويد والنرويج، وأقلها البعثات الألمانية لقلة عدد المتحدثين بالألمانية في العالم عدا قسط يسير في أمريكا الجنوبية.

ونتيجة لهذه البعثات يتوقع أن تصل نسبة نصارى العالم في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى ٨٠٪ من المجموع الكلي للنصارى في العالم وذلك في عام ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م. . ويخطط الفاتيكان إلى تنصير بلاد بعينها مع حلول عام ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

ومن أصعب البيئات التي يطرقها المنصرون هي البيئات المسلمة والتي يكثر فيها عدد المسلمين، ولذلك وبعد مائة سنة من جهود التنصير يجتمع زعماء التنصير عام ١٩٣٥ م في القدس في أحد المؤتمرات برئاسة زعيم التنصير في العالم العربي صموئيل (السموأل) زويمر فيبدون في ذلك المؤتمر يأسهم من تنصير المسلمين، إذ لا يقبل عليهم إلا طفل لم ينشأ في بيئة مسلمة، أو جائع يريد أن يسد رمقه، أو شخص ذو مآرب أخرى، فيؤكد لهم (زويمر) أن القصد من تنصير المسلمين ليس إدخالهم في النصرانية/المسيحية ولكن يكفي أن يخرجوا من دينهم، لذا لا بد من اتباع أسلوب آخر معهم ينصب على تشكيكهم في مبادئهم وقيمهم وقرآنهم وسنة نبيهم، على غرار ما يقوم به المستشرقون منذ عهد غير قريب. ومن جملة ما قال زويمر: «ولكن مهمة التبشير «التنصير» التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريم، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به في الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة».

ويمضي «زويمر» في التأكيد على التوغل في مجالات التربية والتعليم وفي مجالات الشباب والمجالات التي تهم المرأة. . هذا وإن

كان في خطبة زويمر دلالة ضمنية على عجز التنصير في بلاد المسلمين إلا أن فيها تأكيداً على المضي قدماً في طريق تأييد الخطو الاستعماري في البلاد جميعاً. . ولذلك يقرر الباحثون عمق الصلة بين الاستعمار والتنصير، وأن كلا منهما أعان الآخر عوناً ملموساً في أدائه مهماته بغض النظر عن أيهما مهد للآخر.

المستشرقون:

وكما أن هناك علاقة وثيقة الصلة بين الاستعمار والتنصير هناك علاقة وثيقة الصلة أيضاً بين التنصير والاستشراق، فطلائع المستشرقين كانوا في مجملهم ممن تخرجوا من مدارس ومعاهد اللاهوت، بل إن الدافع الأساسي للاستشراق هو الدافع الديني/ والتنصير جزء من هذا الدافع، والهدف الأساسي للاستشراق هو الهدف الديني/ والتنصير جزء من هذا الهدف.

ولأن الاستشراق قد ظهر بوجه العلم والبحث العلمي، ولأن المستشرقين لم يبرحوا أماكنهم في بلادهم إلا لضرورة البحث، ترى بعض المطلعين يستبعد أن تكون هناك علاقة قوية بين الاستشراق والتنصير ويؤيد هذا أن بعض المستشرقين كانوا علمانيين، وبعضهم كانوا ـ ولا يزالون ـ من اليهود. . وهذا حق ولكن البقية الباقية وهي الأغلبية سعت لتحقيق أهداف التنصير، بل إن هؤلاء المستشرقين العلمانيين واليهود قد خدموا التنصير بطرق غير مباشرة من خلال ما سعوا إلى تحقيقه من أهداف استعمارية، أو سياسية، أو اقتصادية، وربما أهداف علمية جانبهم فيها الصواب وجانبوه عمداً. .

ومن ضمن مجموعة المنصرين كان بعض المستشرقين، فزويمر نفسه مستشرق له بحوث ودراسات عليها صبغة العلمية عن العالم

الإسلامي، وكان البعض يعمل مستشاراً لهيئات التنصير كما كانوا يعملون مستشارين لوزارت الحربية والخارجية ووزارات الاستعمار. يقول محمود محمد شاكر في كتابه.. (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا).. «وبفضل ملاحظاتهم ـ المستشرقين ـ التي زودوا بها رهبان الكنيسة ثارت حمية الرهبان ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية، وللدخول في قلب العالم الإسلامي لكي تحول من تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية، وأن ينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عقر داره ـ هكذا ظنوا يومئذ ـ وهذه الطائفة التي عرفت فيما بعد باسم رجال «التبشير» فهذه «الاستعمار، التنصير والاستشراق» ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة وجميعهم يد واحدة؛ لأنهم إخوة أعيان، أبوهم واحد، وأمهم واحده، ودينهم واحد، وهدفهم واحد، ووسائلهم واحدة» ص ٧٥ من طبعة دار الهلال ١٤٠٨ هـ.

ولعبد الرحمن حسن الميداني كتاب بعنوان (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه).. وقد لا يعجب البعض هذا العنوان لما يوحي به من احتمالية عدم التجرد، ولكنه كتاب جيد في مجاله.

مستقبل التنصير:

والكثير من المتابعين يرون أن عهد الاستعمار قد ولى، وأن زمن الاستشراق قد أعلن أفوله إلا من بقية باقية تصدى لها مفكرو المسلمين وضيقوا عليها الخناق، فما عادت تمارس ما مارسه أسلافها من الطعن المباشر، والحق أن الاستشراق لا يزال قائماً، ولكنها الوسائل هي التي تغيرت، أما التنصير فإنه يزداد قوة وتصميماً، ولابد أن يستمر في الاستعانة بالاستشراق، وربما جعل من ذاته معولاً استعمارياً يؤكد

استمرارية الاستعمار، لكن بصورة أخرى غير الصورة التي كان عليها الاستعمار في القرن الماضي والنصف الأول من القرن الحالي.

ومع التصدي الإسلامي للتنصير وبروز فكرة التبشير المضاد يجد التنصير نفسه في موقف يحتم عليه تطوير وسائله وأساليبه، فيسارع إلى المناطق المنكوبة بسبب الحروب، أو الكوارث الطبيعية أو المجاعة، أو نحوها فيقيم مراكزه قبل أن يصل إليها المسلمون في بلاد الإسلام وفي غير بلاد الإسلام. ومع هذا يبقى الاتجاه إلى مراكز الإغاثة الإسلامية بارزاً رغم تفوق مراكز التنصير في الخدمة والإمكانات، مما يؤكد الحاجة إلى التكثيف من مراكز الإغاثة وتطويرها وشموليتها.

التنصير في أوروبا:

وليس التنصير موجهاً فقط إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل هنالك التنصير المحلي في أوروبا وأمريكا الشمالية، وهو موجه إلى النصارى واليهود وأصحاب المذاهب الأخرى والعلمانيين، كما أنه موجه إلى الجاليات المسلمة في هذه البلاد من المقيمين فيها، أو من الطلبة والسائحين. وهنالك برامج خاصة للطلبة في الأعياد والمناسبات وفتح الأسر أبوابها لسكن الطلاب والجمعيات الدينية في الجامعات والكليات، بالإضافة إلى برامج الإذاعة والتلفزيون الموجهة، وخاصة منها في المناسبات وأيام الأحد.

وهنالكم أشخاص يجوبون الشوارع ويقرعون الأبواب ممن ينتمون إلى مجموعة (شهود يهوه) وغيرهم، فتراهم يحملون معهم كتابهم ومجموعة من المنشورات يتجولون في المطارات والأسواق المركزية يحاولون إقامة علاقات عمادها النقاش والإقناع، مع عدم استعدادهم لسماع وجهة نظر الآخرين على اعتبار أنهم يرون أنهم هم على الحق

وغيرهم على باطل، ونشاط هؤلاء المحليين لا يقل عن نشاط البعثات في البلاد الأخرى وإن اختلفت الوسائل..

ويعانون أيضاً من عدم إقبال المسلمين على دعوتهم، فالمسلمون هناك يشكلون العقبة الكأداء أمامهم، وكثيراً ما ردوهم رداً قائماً على المناظرة والإقناع فينسحبون خائفين من أن تنقلب الصورة، وقد حدث أن انقلبت فعلاً فأسلم منصرون ولم يتنصر مسلمون. هذا على المستوى الأوروبي والأمريكي.

ولكن علينا نحن المسلمين مواصلة الجهد في صد هذا التيار بالوسائل المتاحة وبالرجال المؤمنين وتلك نقطة تحتاج إلى وقفة أخرى، وكان الله في عون الجميع..

المنصرون «و» اليهود..!

«وليم بيل روبنسون» يناهز الخمسين عاماً. افتتح مركزاً لرعاية الأطفال المعوقين فكرياً بقرية راشيا الفخار في منطقة «الحزام الأمني» منذ عام ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م في جنوب لبنان.

هذا العمل يُعَدُّ عند البعض من الأعمال «الإنسانية» التي يقوم بها أفراد قد يكونون أجانب على المنطقة التي يقومون بها بإنشاء مراكز الرعاية. والرجل أمريكي عاش في لبنان فترة غير وجيزة، وكان يعمل قبل ذلك في مشاة البحرية الأمريكية.

روبنسون كان منصراً استغل ـ مثل غيره ـ الحرب الأهلية الطاحنة في لبنان، وقيام المشكلة في جنوب لبنان لينفذ رسالة أخذها على عاتقه، وهي محاولة تنصير أبناء المنطقة من غير النصارى. وهذا أسلوب قائم ومستمر ومنتشر في كثير من البلاد. ولا غرابة في هذا. فقد تعود عليه الأهلون. وتعودوا على المراكز التي تقدم أطيب الخدمات التعليمية والتدريبية والعلاجية والصحية والفلاحية وخدمات الإغاثة. وهذه من الوسائل المعتمدة في التنصير الذي يسميه البعض بالتنصير المختفي.

والغرابة هنا عند بعض الناس أن يعمد «روبنسون» المنصِّر إلى القيام بمشروع توطين لليهود في جنوب لبنان، وهو متهم بمحاولة الاستيلاء

على غابة من الصنوبر ليقيم عليها مائتي بيت لليهود، وفي جنوب لبنان حيث لا يجرؤ اليهود على هذا خارج «الحدود» الواضحة لهم. والغرابة هي أن هذا الأسلوب من «روبنسون» يؤيد ما يذهب إليه بعض المتابعين لأهداف حملات التنصير من أن أهدافهم الرئيسية تأييد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين العربية المسلمة.

النزاع القديم:

والغرابة ناتجة من النزاع المختلف بين النصرانية واليهودية منذ الزعم بصلب المسيح ـ عليه السلام ـ. وأنه صلب بأيد يهودية. وقد برأت الكنيسة الكاثوليكية اليهود من صلب المسيح ـ عليه السلام ـ هذا الصلب المزعوم في مفهومنا نحن المسلمين. ومع هذه التبرئة إلا أن جزءاً غير يسير من النصارى اليوم لا يزالون يظنون أن المسيح قد صلب، وأن اليهود هم الذين ضيقوا عليه ـ عليه السلام ـ حتى صلبوه. ويصعب على هذه الفئة من النصارى أن تبرىء اليهود من هذا. وأقرب شاهد على هذا موقف النصارى العرب في الشام عموماً وعدم موافقتهم لقرار الكنيسة الكاثوليكية في هذا الشأن. خصوصاً أن معظم النصارى العرب في الشام من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية التي لا تتفق مع الكاثوليكية في أصول الديانة النصرانية، ناهيك عن فروعها. وعليه ـ ودون سابق علم ـ لا أستغرب أن يكون لبعض النصارى العرب أثر فعال فيما حصل للمنصِّر «وليم بيل روبنسون» حيث قتل يوم الثلاثاء ـ ليلة الأربعاء الماضي ١/ ٩/ ١٤١٠ هـ الموافق ٢٧/ ٣/ ١٩٩٠ م بعد تحذيرات وتنبيهات لخطر هذا المنصِّر الذي تجاوز حد التنصير المعتاد في المنطقة إلى إقامة مستوطنة لليهود في جنوب لبنان. خصوصاً أن جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية أعلنت أن وحدة «لولا عبُّود» هي التي باشرت عملية إعدام المنصِّر

«روبنسون» ويوحي الخبر بأن الرجل قد حكم عليه بالإعدام ولذا لم يقل إن الوحدة باشرت عملية الاغتيال.

ونحن ندرك الصراع التقليدي بين النصرانية واليهودية. والقرآن الكريم يؤكد على هذا في سورة البقرة، حيث تقول الآية (١١٣) ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾.

تنصير اليهود:

وما دام هذا الموقف قائماً بين اليهود والنصارى فكيف يمكن أن يقال أن من أهداف التنصير في المنطقة العربية والإسلامية ترسيخ قيام وطن قومي لليهود في فلسطين؟! والإجابة على هذا السؤال تعيدنا إلى ما قبل سنة ٦٧ م. عندما تدخل «بولس» القديس في الديانة النصرانية وكتب رسائله في العهد الجديد. وهو من مواليد طرسوس، واسمه الأصلي «شاؤل»!! درس في القدس ونشأ نشأة يهودية متحمساً لوطنه!! وكلف من قبل رئيس الكنيسة بالذهاب إلى دمشق لمقاومة النصرانية سنة ٣٥ م. وكان من أبرز من اضطهدوا النصارى في عصره. وزعم أنه رأى نوراً ساطعاً يناديه باسمه «شاؤل» ويسأله عن سبب اضطهاده، فسأل «شاؤل» الصوت من أنت؟ فأجابه الصوت: أنا يسوع الذي تضطهده!! فانصرف إلى دمشق ونزل مع النصارى وانخرط في سلكهم، وأصبح أنشط المنصرين في القرون الأولى وسمى نفسه «بولس» فثار اليهود ضده وقبضوا عليه في القدس سنة ٥٧ م ثم قبض عليه بعد تبرئته وسيق إلى روما حيث أعدم صلباً.

«بولس القديس» هو الانطلاقة، ـ ومن خلال رسائلة ـ لتسخير

النصرانية في اليهودية. فالظاهرة التي استمر عليها. «وليم بيل روبنسون» ليست فقط وليدة قيام دولة لليهود في فلسطين المحتلة منذ سنة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٤٨ م، ولكنها تعود إلى قبل هذا التاريخ بتسعة عشر قرناً من الزمان أو تزيد.

وفي سبيل تحقيق هذا التلاحم يلجأ اليهود إلى التنصُّر قصداً إلى إدخال الخلل ـ أو مزيد من الخلل ـ في العقيدة النصرانية، مع وجود القابلية لهذا الخلل، ليس فقط لترسيخ العلاقة وإنما لطمس معالم النصرانية الحقة قصداً في النهاية إلى السيطرة اليهودية على العقيدة النصرانية، بحيث تصبح النصرانية صورة شائهة لليهود. وليس بالضرورة أن يعود النصارى إلى اليهود؛ لأن اليهودية لا تقبل من أحدٍ أن «يتهود» ما لم تكن أمه يهودية الأصل، ولكن اليهودية تقبل أن يتبنى أفكارها الأخرون وإن بقوا على خلفيتهم الدينية المذهبية، بل هي تسعى إلى هذا سعياً واضحاً من خلال رفضها لليهود المتهودين، كما يحصل الآن ليهود «الفلاشا» الذين جيء بهم ليكونوا لحماً للمدافع على الحدود مع البلاد العربية.

ولعل هذه العودة تبرر قيام هذا المنصر «روبنسون» بالأخذ على عاتقه إقامة مستوطنة لليهود في جنوب لبنان. الأمر الذي لا يتمكن منه اليهود أنفسهم. ولعل هذه العودة تبرر الرأي القائل أيضاً إن حملات التنصير تنطلق من «تل أبيب» إلى إفريقيا وآسيا، وإن هناك في مدن فلسطين المحتلة مراكز للتنصير لا تعمل داخل فلسطين المحتلة بقدر ما هي مراكز تموين وتمويل للحركات والحملات التنصيرية خارج فلسطين، كما احتضنت دولة اليهود الفرق الأخرى كالبهائية والبابية والقاديانية وغيرها، مما يساعد على محاولة تحقيق أهداف التنصير في العالم الإسلامي التي تركزت منذ مؤتمر القدس التنصيري سنة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٥م

في إخراج المسلمين عن الإسلام وبذر الاضطراب العقدي بين المسلمين الذين يصرون على التمسك بدينهم، وكان هذا منطق كبير المنصرين في المنطقة «صاموئيل (السمؤال) زويمر» الذي يعود هو نفسه إلى أصل يهودي. حيث يذكر «عبد الله التل» في (جذور البلاء) أنه عندما كان يحتضر سنة ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٢ م استدعى حاخاماً يهودياً لعله أراد منه أن يلقنه صلوات يهودية قبل أن يموت (ص٢٢٨). ويذكر «عبد الله التل» في الكتاب نفسه قوله عندما ذكر خلفية المنصر «زويمر»: «وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيات (التبشير) التي تبذل الملايين عبثاً، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية». جاء هذا على لسان راهب يوجه كلامه إلى مفكر مسلم في محاولة للتقريب بين النصرانية والإسلام.

دافع للتنصير:

وهذا النقاش لا يسعى إلى تبرئة النصارى من محاولات التنصير بين المسلمين، فالقوم يعملون هذا لدوافع، منها الدافع الإيماني لديهم الذي يملي عليهم أن ما هم عليه حق وما عليه الآخرون من الباطل. ولكن النقاش سعى إلى توضيح الادعاء الذي انطلق منه، وهو أن هناك تلاحماً بين النصرانية واليهودية في المجتمع المسلم، وأن هذا التلاحم مقصور على المجتمع المسلم، وليس وليد العقود الوسطى من القرن العشرين الميلادي أو القرن الذي سبقه.

وإذا ثبتت هذه العلاقة القديمة فهل يؤثر هذا على نظرة المسلمين للتنصير؟! ليس هذا بالضرورة. فالمسلمون يرفضون التنصير مبدأً

ومنطلقاً. ولكن ثبوت العلاقة قد تدعو المسلمين إلى السعي الجاد نحو تبيان العلاقة لأولئك الذين ينخرطون في حملات التنصير بدوافع إيمانية وهم لا يدركون كنه العلاقة. وعندما يدركونها على أيدي المسلمين فلا شك أن هذا سيكون خطوة أولى نحو تحول هذه الفئة من المنصرين إلى الإسلام. ولديَّ نموذج حيّ يؤيد ما أذهب إليه.

فقد أسلم منصر وأصبح داعية للإسلام عندما تبين له الحق.

مدى الوعي:

والتركيز على ثبوت العلاقة سوف يكشف للمنصرين واليهود على حد سواء مدى الوعي الذي وصل إليه المسلمون في التعامل مع الحملات التنصيرية ذات الوسائل المختفية، وإذا صحب هذا الوعي حملات دعوة إلى الله صريحة تحمل معها الكساء والغذاء والقلم والكتاب والدواء والمنجل أمكن عندها مواصلة التهديد الإسلامي لحملات التنصير في إفريقيا وآسيا وأوروبا. وهذا ما أعلن عنه بعض المنصرين في إفريقيا حينما دعوا إلى تكثيف الحملات قصداً إلى التغلب على الجهود المحدودة للإغاثة والدعوة. وما دام المسلمون يملكون الحق ـ كتابهم ـ في أيمانهم، ويملكون الوسائل الأخرى في شمائلهم فلِمَ لا ينطلقون بها يشعون النور في عالم من الظلمات؟! فيبينون بطلان الوسائل الأخرى ويحاولون القضاء على هذا التلاحم اليهودي التنصيري الذي بات يتحول إلى تحقيق أطماع اليهود في العالم قبل أن يحقق أطماع النصرانية التي لم يعد لها مع هذا التلاحم أطماع ذاتية.

ولعله في الأخير لا يفهم من هذا النقاش الموافقة على مضمون الخبر الذي أثار هذه الوقفة، فالاغتيال ليس في شريعتنا، والدعوة إلى الله بوضوح أفضل وسيلة نصل بها إلى أنفسنا لنصل بعدها إلى الآخرين. لا

نريد من وراء هذا كله مطمعاً مادياً أو زيادة في مساحة الأرض، ولكننا نسعى إلى أن نلقى الله وهو عنا راض. فمرحى لمن جعلوا هذه الغاية هي الموجهة لمنطلقاتهم. ومرحى لمن يقفون وراءهم يتغلبون معهم على العقبات التي تواجههم ويرعونهم. وكان الله في عون الجميع.

الجزيرة العدد ٦٣٩٤

الأحد ٦ رمضان ١٤١٠ هـ ـ ١ أبريل ١٩٩٠ م

من التنصير.. إلى الدعوة إلى الله ..!!

يتعرض الطلبة الدارسون في الخارج إلى حملات التنصير بشكل واضح جداً. . تبدأ الحملات غالباً في معهد اللغة. . أو ربما بدأت في مكتب الطلبة الأجانب في الكلية أو الجامعة. . هذا عدا عن أفراد يقرعون عليك الباب «يبشرون» بالمسيح ـ عليه السلام ـ وربما كانوا أبعد من غيرهم عن تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ هذا إذا كانوا قد أبقوا على شيء من تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ. . وهذه كانت انطباعتنا عن كل من يطرق الباب دون موعد مسبق.

وكنت في «شقتي» الصغيرة يوماً عندما قرع عليَّ الباب مجموعة من الرجال. . نظرت إليهم من منظار الباب فوجدت أشخاصاً عليهم سيماء طيبة. . وثيابهم مألوفة. . . فعلمت أن هؤلاء مسلمون. . فتحت الباب ورحبت بهم. . وكانوا من الإخوة الهنود والباكستانيين وبعض المقيمين من مسلمي الولايات المتحدة الأمريكية. . وكان من بينهم رجل يلبس الثياب الهندية ولكنه من الأمريكيين. . فدفعني الفضول إلى سؤاله عن الطريق الذي وصل منه إلى الإسلام. . فأجابني الرجل أنه دخل الإسلام عن طريق التنصير. . فعجبت كثيراً. . وبدا عليّ العجب. . !! وقدَّر عجبي فقص عليَّ خطواته الأولى نحو التعرف على الإسلام. .

كان في حملة تنصيرية في الهند مع فريق من أولئك الذين نذروا أنفسهم للمسيح.. ومرَّ على قرية خرجت عن بكرة أبيها إلى ساحة عامة.. اصطف فيها الناس صفوفاً منتظمة وعجيبة.. وأمام هذا المشهد رجل واحد.. كلما تحرك تحرك الجميع كما يتحرك.. ولا يتحركون قبل أن يتحرك.. فعلم الرجل أن الناس جميعاً في شأن.. فانتظر حتى بدا عليهم الانتهاء من هذا الشأن حين انصرفوا.. بحث عن شخص يتكلم اللغة الانجليزية.. فانبرى واحدٌ من الجمع.. فسأله الرجل عما كانوا يعملون.. فأجابه بأنهم كانوا يصلون لله تعالى صلاة جماعة.. ولعل الوقت كان جمعة أو عيداً.. فسأله عن هذا الدين الذي أوحى إليهم بهذه الطريقة الجميلة في العبادة.. فأجابه بأنهم مسلمون.. فهزَّ الرجل رأسه عجباً.. لم يكن يعرف عن الإسلام إلا ما درَّسوه له في الثانوية من أنه دين يستولي على خيرات الأمم ويجلبها إلى مكة (المكرمة) حيث قبر الرسول(!!).. ولم يكن يعرف عن الإسلام ما أملوه عليه في بداية الحملة من أنه دين يهدد الوجود البشري بأكمله.. ولكنه وجد شيئاً عجيباً..

ترك الجميع وذهب يبحث عن الإسلام.. لم يستمر كثيراً في الحملة التي جاء معها.. فقد خفت فيه الحماس.. وبدأ يستعيد المعاني التي يمكن أن يجدها في دينه على شاكلته التي هو عليها.. وقف وقته على القراءة عن الإسلام.. عزم على أن يقرأ عن الإسلام بأقلام المسلمين.. لم يكن يعتمد كثيراً على ما يكتبه أبناء قومه من المستشرقين؛ لأنه أدرك أنهم لابد طاعنون في الإسلام.. وقرأ كثيراً.. فوجد الخير في الإسلام ثم أعلن دخوله فيه..

وفي سبيل أن يكفر عن خطيئته التي جرته إليها الحملات التنصيرية.. وقف وقته على الدعوة إلى الله تعالى.. في البدء كان يرافق

مجموعة من الرجال ينصت إلى ما يقولون فهو لا يزال يتعلم.. وفي الوقت نفسه كان يزداد علماً من خلال ما يقرأ ويسمع.. ثم بدأ يدخل مجال الدعوة في تبيان فضل الإسلام بالمقارنة بالدين الذي خرج منه.. وما يبذر هذا الدين «الجديد» من الطمأنينة في النفس حينما يتجه المرء إلى الواحد الأحد.. بدلاً من أن يتجه إلى ثلاثة من ثلاثة.. أو إلى اثنين من ثلاثة.. أو إلى واحد من ثلاثة.. أو لا يتجه إلى أي من هذه الثلاثة.

وهذه ليست هي الحالة الوحيدة التي يهتدي فيها منصرون إلى الإسلام.. فقد حدث هذا في إفريقيا.. ويحدث الآن في أماكن أخرى.. وقد نشرت «المسلمون» قريباً خبر منصِّر هداه الله إلى الإسلام.. وتكاد تكون المسألة هنا ظاهرة تستحق الدراسة والمتابعة.. فاهتداء النصارى واليهود وغيرهم أمر ليس غريباً.. أو عجيباً.. ولكن اهتداء من حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى دينهم أمر يستحق التوقف حقاً..

وأريد أن أصل من هذه الحادثة إلى نتيجة قد تكون قابلة للتعميم.. فنحن نتحدث عن الوسائل التي يستعين بها المنصرون في حملاتهم.. ومن هذه الوسائل نذكر الحقد التقليدي على الإسلام من قبل أولئك الذين يدرسون الحروب الصليبية.. ثم يريدون لها أن تمتدَّ حرباً صليبية تأخذ أشكالاً أخرى من السلاح غير الشكل الذي كانت عليه الحروب الصليبية.. وندرس ضمن هذه الوسيلة الاستعداد الذاتي لدى المنصرين.. ورغبتهم في السفر والاختلاط بالأمم الأخرى التي يراد لها أن تتنصَّر.. وما يتبع هذا الاختلاط من التخلي عن سبل الرفاهية التي عاشت عليها الأمة الغربية.. وندرس ضمن هذه الوسيلة أيضاً إيمان بعض المنصرين بما يدعون إليه إيماناً عقدياً..

ثم تأتي هذه الحالة وحالات مشابهة لتنبهنا إلى أن علينا عدم

التعميم في الأحكام.. فليس كل من يشترك في حملات التنصير مؤمناً بما يقوم به.. وليس كل من يشترك في حملات التنصير حاقداً على الإسلام والمسلمين.. ولكن جماعة من هؤلاء مُضَلَّلُونَ.. لديهم الرغبة في نشر الخير.. فلم يجدوا وسيلة أمامهم إلا حملات التنصير.. فلما تبين لهم الحق تركوا ما هم عليه وتبعوا الحق..

وهذا يلقي عبئاً آخر على الدعاة إلى الله في أن يَجِدُّوا في اتباع السبل الحديثة المشروعة في الدعوة إلى الله.. وأن تكون هناك لقاءات مع مجموعات المنصِّرين تكون فيها مناظرات وحجج ونقاش.. ولا يستغرب المرء أن تتحوَّل هذه الجهود والإمكانات التي يقوم بها المنصرون في مصلحة الإسلام.. ولا يستغرب المرء أن تتحوَّل مجموعات من الأعضاء في الجمعيات التنصيرية إلى الإسلام.. إذا ما اتضح الإسلام لهذه الجمعيات والمجموعات..

وعليه فإن مجرد التوعية بأخطار الجمعيات التنصيرية المنتشرة اليوم قد لا يكون كافياً.. بقدر ما تكون البدائل متوافرة.. ومن هذه البدائل التوجُّه إلى هذه الجمعيات والجماعات وانتزاع المضلل منها.. والتشكيك في المصمِّمين منها.. وتشكيكهم هم بجدوى ما يقومون به على المستويين الدنيوي والأخروي..

وهذه مسؤولية تضاف إلى المسؤوليات المناطة بالدعاة إلى الله تعالى الذين آلوا على أنفسهم مزاحمة الباطل بالحق وإنقاذ الأمم الأخرى من الضلال ومن الدعاة إلى الضلال.. وتبقى المقومات والإمكانات الأخرى المطلوبة في سبيل القيام بهذه المسؤوليات ندعو الله أن يتنبه إليها القادرون.. فيشكِّلون للدعاة مصادر للدعم والتمويل والعون وتذليل الصعاب، وكان الله في عون الجميع.

الثلاثية.. والتثليث..!

الوحدة والتوحيد مصطلحان مختلفا المفهوم تماماً عند المؤمنين بهما ـ وإن كان البعض من أرباب الثقافات الأخرى قد لا يستطيع التفريق بينهما ـ وأمة التوحيد لا تؤمن بالوحدة بمفهوم المؤمنين بها، وأمم الوحدة لا تؤمن بالتوحيد بمفهوم المؤمنين به، وعبارة الوحدة عندنا غير متداولة، ولكن كلمة التوحيد بمفهوم المؤمنين به محدودة الاستعمال، وكلمة التوحيد عندنا شائعة، ولكن بدأت كلمة الوحدة تشق طريقها على حساب كلمة التوحيد في الغالب.

فالوحدة العربية بمفهومها القومي، جاءت بديلاً لمفهوم التوحيد بمعناه الإسلامي، وليس بالضرورة بديلاً ماحياً ماحقاً، ولكنها جاءت فيما يبدو لتجعل التوحيد ثانوياً وهي تكون في المقام الأول.

والوحدة عند أتباع الإنجيل /الأناجيل/ هي اتحاد الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) في واحد هو إما الرب أو عيسى، وربما جاء من قال إنها اتحدت في الروح القدس، ومن ينادي بالوحدة في هذه الثقافة يكون خارجاً عن المألوف، ويحتاج إلى كثير من التعديل في الدعوات والصلوات الإنجيلية.

وأزعم هنا أن الثلاثية ـ في الغالب ـ جاءت من التثليث، ففي

الأفكار الماسونية نجد شعاراً ثلاثياً يقوم على الإنسانية والأخوة والمساواة، ونجد عند الاشتراكيين شعاراً يقوم على الوحدة والحرية والاشتراكية، وصاحب فكرة الكشافة ظهر علينا بتحية تقتصر على الأصابع الثلاثة (الخنصر، والأوسط، والشاهد). وربما يدخل في هذا ـ ولو من بعيد ـ إصرار البطولات الرياضية على اختيار الثلاثة الأول، فصاحب الترتيب الأول يحتفل به واقفاً في الوسط ويعطى الميدالية الذهبية، والثاني ويكون عادة على يمين الأول ـ وأوطأ منه في المنزلة ـ ويعطى الميدالية الفضية، والثالث ويكون عادة على يسار الأول ـ وأوطأ منه ـ كذلك ـ في المنزلة ـ ويعطى الميدالية البرونزية، وعلى أي حال فهناك ممارسات طقوسية عندما لا يلتفت إلى خلفيتها توقع في مأزق، وقد يظن أن خلفيتها مرتبطة بثقافة بعينها إن لم يقم الظن على البحث والاستقصاء والاستقراء، وربما قام الحكم على مجرد التخمين والظن.

ومع هذا كله فالعالم اليوم في أنشطته كلها يسعى إلى «التوحُّد» في المنزلة، وننظر إلى الأول أو رقم واحد على أنه المقدم في مجاله، فالصحيفة الأولى هي التي تتوافر فيها صفات الأولوية، والبطل الأول والشركة الأولى، والمصنع الأول، والفريق الأول، والبناء الأول في التصميم، والسيارة الأولى، وكل ما يمكن أن يهتم به الإنسان يجعل له أول، وعادة لا يلتفت الناس على العموم إلى الترتيب التالي والذي بعده، فيقتصرون على معرفة الأول في كل شيء وإنما يلتفت إلى الثاني لمعرفة مدى وصول الأول إلى الأولوية، والتنافس على أشده في إحراز المرتبة الأولى حتى لو أدى الأمر في بعض المواقف إلى اتباع أساليب غير مشروعة وغير قانونية وغير نظامية للوصول إلى هذه المرتبة، مما يؤدي إلى العقاب والحرمان من المنافسة عندما يكتشف أن هذه الأساليب قد اتبعت.

ولعل هذا يقود إلى القول بأن الإنسان نزَّاع إلى التوحيد، غير ميال إلى الاتحاد أو الوحدة بالمفهوم العقدي، إذ إن الاتحاد يعني أن شيئاً كان مبعثراً فاتحد أو وحِّد في شيء واحد يجمع كل العناصر القابلة للتبعثر مرة أخرى عند حدوث أي ظرف يدعو إلى التفكك.

وها نحن نعيش حالة من محاولات التبعثر في الاتحاد السوفييتي ـ مثلاً ـ وهناك من ينادي بالاستقلال في يوغسلافيا، بل إن هذا التيار قد عرج على الولايات المتحدة فظهرت في الأجواء نداءات ودعوات إلى انفصال بعض الولايات عن الاتحاد مثل كاليفورنيا بالغرب.

وكثير من الشركاء يتحدثون ثم لا يلبثون أن ينفصلوا، وقد تدعو الحاجة إلى الاندماج والاتحاد، ولكن الوضع هنا غير طبيعي، إذ إن سبب الاتحاد هو عجز أحد الشركاء أو عدد منهم على الصمود على الساحة.

ولأن الإنسان نزاع إلى التوحيد نجد أنه يقبل على دعوة التوحيد عندما يدرك فيها مفهوم التوحيد، وقد كنت في ألمانيا مرة في مؤتمر قابلت فيه رجلاً أمريكياً تبين لي أنه مسلم، وحيث إن كلينا يتكلم الانجليزية دار بيننا حوار تطرقنا فيه إلى السبب الذي من أجله أسلم الرجل، فذكر لي أنه كان ممارساً لشعائره الدينية وكان يدرس في مدرسة تنصيرية دينية تخرج القسس والرهبان، كما فعل والده ووالدته وأخته، وكان يتوقع له شأن في الكنيسة، إلا أنه كان يقلق كثيراً عندما يأوي إلى فراشه فيسأل نفسه هل صلى للثلاثة جميعهم، أم صلى لاثنين منهم، أم صلى لواحد، فإن كان صلى لاثنين فمن ترك، وإن كان صلى لواحد فقط فمن ترك، فما كان يدري.. وفي المدرسة اللاهوتية مدرسة باكستانية أعطته نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم وطلبت منه قراءتها خارج المدرسة فقرأ فيها ضمن ما قرأ مفهوم التوحيد، وأن الرب واحد والمعبود واحد ليس له شريك، ولا صاحبة، ولا ولد، فزال عنه القلق وأدرك أنه

لو أسلم فسيصلي لواحد فقط لا يشبهه أحد، فأعجبته فكرة التوحيد فتحول إلى داعية إلى التوحيد، وأجزم أنه إذا فهمت فكرة التوحيد في مجتمعات مختلفة فإنها ستريح كثيراً من البشر الذي يجعلون شركاء يدينون لهم بالولاء.

ولا يفهم من هذا الكلام أن كل شيء جاء على ثلاثة يكون منحدراً من خلفية التثليث، فالحكم هذا يحتاج إلى التوثيق والمتابعة العلمية، انظر مثلاً إلى إشارة المرور تجدها عالمياً على ثلاثة ألوان متعارف عليها، وربما قال البعض إنه يمكن الاكتفاء بلونين، على اعتبار أن اللون الوسط في إشارة المرور غير ذي تأثير في بعض المجتمعات، ولكن هذا النظام عالمي يقصد به السلامة، ولو لم تأبه لشيء منه بعض المجتمعات، ولو لم تأبه له كله بعض المجتمعات الأخرى. وكنت في مجتمعات تعمل فيها إشارات المرور لمجرد صرف الكهرباء ولا يلقي لها الناس بالاً على الإطلاق ويحنقون على الذي يلتزم بها من الغرباء!!.

وأردُّ بهذا على أولئك الذين يتوجَّسون من كل ما له علاقة بالثلاثية كما يتوجس البعض من كل ما جاء على شكل خطين متقاطعين يشكلان رمزاً للمعتقد المسيحي/النصراني، فيكون هناك نوع من الحساسية حول هذه المفهومات أو الأشكال ينفع فيها الحذر ولا تصلح معها المبالغة في الحساسية.

ولدينا في شعائرنا بعض الممارسات التي تأخذ بالحسبان الثلاثية كحد أعلى للممارسة أو كحد أدنى لها، ومع هذا لا نشعر نحوها بالحساسية؛ لأنها تشريع بل نحرص على ألا يقل الفعل فيها عن ثلاث مرات في مواضع الزيادة فيها خير، وألا يزيد الفعل فيها عن ثلاث مرات إذا كانت الزيادة فيها إسراف، ونحن نتعبد بهذا ما دام عن طريق مصدر من مصادرنا التشريعية.

ونصل من هذا كله إلى أن الممارسة سواء أكانت متعلقة بالفكرة المطروحة هنا حول الثلاثية والتثليث أم لم تكن لها علاقة، مقرونة بالنية، فينظر إلى القصد من وراء أي حركة توحي بالانتماء إلى فكر أو خلفية ثقافية، والنية لا تظهر، ولكن تعين عليها أحياناً القرائن ومجموعة من التصرفات التي ترجح الحكم على أي ممارسة، ولا تقطع فيه، والحذر مطلوب، والاحتياط أو الحيطة واردة، ولكن المبالغة فيها غير مرغوب فيها.

الجزيرة العدد ٦٨٩٥

الخميس ٥ صفر ١٤١٢ هـ ـ ١٥ أغسطس ١٩٩١ م

.. وفي إفريقيا يبشرون بالخير

الحديث عن إفريقيا «الخضراء» حديث يبدأ عادة ولا ينتهي، فإفريقيا اليوم موضوع شائك حقاً، والحديث عنها حديث عن قارة تكتنف على أرضها ما لا يقل عن أربع وخمسين دولة ذات كيان «متميز»، وهي تقوم على حوالى ٢٠٪ من أرض الله الواسعة، أي أنها تشمل خمس الأرض، إذ تقدر مساحتها بما يصل إلى «١٨,٩٧٧,٠٠٠» كم٢ من مجموع مساحة الكرة الأرضية البالغة «٩٤,٧٢٠,٠٠٠» كم٢. ويقطن هذه المساحة ما يصل إلى «٥١٦,٠٠٠,٠٠٠» خمسمائة وستة عشر مليون نسمة بمعدل ٢٧,٢ لكل كيلومتر مربع. ومن هنا نجد الحديث عن إفريقيا ربما يطغى عليه التعميم في غالب الأحيان، وبخاصة في الآونة الأخيرة عندما بدأ الحديث عن الجفاف والقحط والمجاعات التي برز ظهورها واجتاحت معظم أراضي إفريقيا والجزء الشرقي منها بشكل ملحوظ، وسارع في تبني أساليب الإغاثة فيها مجموعات ومجموعات متباينة في اتجاهاتها ونياتها ونظرتها إلى هذه الظاهرة.

إفريقيا تتعرض للبعثات التنصيرية منذ زمن ليس بالقريب، فقد خرجت حملات التنصير من أوروبا وأمريكا ومعها الغذاء والدواء والكتاب، فأنشأت المستشفيات، وأقامت المدارس، وأطعمت بعضاً من

الجائعين، ومن ثم بنت الكنائس. وكسبت بذلك مجموعات كبيرة من المتنصرين من أصحاب المعتقدات المحلية الموروثة، ومجموعات من المسلمين الذين توقف عنهم المد الإسلامي، فجهلوا هذا الدين في وقت هم بحاجة فيه إلى أن يتعلقوا بقوة فوق قوتهم البشرية وإرادة طاغية على إرادتهم المحدودة.

وبذلك نجحوا في رفع النصارى في إفريقيا إلى (١٤٧,٠٠٠,٠٠٠) أي ما يعادل ٣٠٪ من عدد السكان الإجمالي، في وقت يبلغ فيه عدد مسلمي إفريقيا ما لا يقل عن «١٥٢,٩٤٣,٠٠٠» مسلم، أي ما يعادل ٣١٪ من سكان القارة.

وإذا كانت حملات التنصير قد تضاعفت في القرن الميلادي الماضي (١٨٠٠م)، فإن الوجود المسيحي في إفريقيا كان قبل ذلك بكثير، ولكنه كان الوجود الذي قَبِلَ الإسلام ديناً حقاً حينما آمن النجاشي بدعوة محمد ﷺ وآوى أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة قبل ١٤٠٦ سنين مضت.

وحينما وصل البلاء قمته في إفريقيا هب العالم كله ـ كل حسب ما تمليه عليه مبادئه التي يتبناها ـ للمساهمة في إنقاذ أكبر عدد ممكن ممن يتعرضون للمجاعة وبلائها، فكان نصيب المسلمين في هذا ملحوظاً ـ ولله الحمد ـ، وكانت أسراب المتطوعين تغادر بلادها إلى تلكم الأرض الجافة تنفل المتاع وتواسي المصابين وتعلن لهم عملياً أنهم معهم في شدتهم. ولا تزال هذه الجماعات تساهم في ذلك مساهمة ملحوظة كانت موضع إعجاب الكثيرين بعد أن تعود الكثيرون على أن يروا وجوهاً غريبة عليهم تقوم بهذا الدور. وهذا الأسلوب في إغاثة المنكوبين لا يتوقع منه أن يقف عند حد، إذ إن ما حل بهؤلاء لا يأخذ الطابع المؤقت كالزلازل والفيضانات، ولكنه أمر يأخذ طابع الاستمرارية إلى أن يشاء الله، مما يزيد

في التأكيد على الاستمرار في الدعم الروحاني والمادي في آن واحد.

وإذا كان مقدراً للمجاعة المادية أن تتوقف عند نقطة من الزمن، فإن المجاعة الروحانية لا تزال قائمة وستظل قائمة يستغلها أصحاب الأهواء والمنافع المادية، وهذا بدوره يضاعف من مسؤولية المسلمين الذين يحملون على أكتافهم أمانة لم تحملها السموات ولا الأرضون أو الجبال، ويأتي ذلك عن طريق اتباع أسلوب «التبشير المعاكس» إن صح التعبير هذا، ويتمثل ذلك في مد دعوة الله إلى سكان إفريقيا روحانياً ومادياً، وذلك بتبني مشروعات تنمي حياة البشر هناك تقيم لهم المدارس وتبني المساجد وتشيد المستشفيات، وتسعى إلى إيجاد فرص العمل للأهلين هناك في هذه المشروعات، فتنير بنور الله أرضاً يخيم عليها الظلام بمعانيه.

وإذا كانت هذه المسؤولية تقع علي عاتق الحكومات والهيئات الإسلامية، فإن هذه الحكومات والهيئات تقوم بدور يهدف إلى إنقاذ ملايين المنكوبين في إفريقيا، وتتضافر جهود الأفراد واللجان التطوعية مع الجهود الأخرى في المساهمة في هذا المشروع الكبير. ويكثر المتطوعون الذين يرغبون دائماً في أن يكونوا على قمة المأساة يعالجونها شخصياً ويتعرفون على ظروفها ويتوصلون إلى أفضل السبل في تقديم العون المباشر إلى الأهالي المتضررين.

وتلمس هذه اللجان مباشرة أساليب التفرقة التي تمارسها بعض المنظمات التي لا تنتمي للإسلام وتأتي إلى إفريقيا باسم إنقاذ إفريقيا. وهي في واقع الأمر إنما تنقذ من ترى فيهم من يخدم مبادئها ومعتقداتها، تاركة الجماعة الإسلامية جانباً، ولعل هذا ما يبرر وجود مدارس نظامية يلتحق بها غير المسلمين هناك، ووجود مدارس «بدائية» لا تزال تعتمد على اللوح بين يدي أطفالها يكتبون عليه ما يُملى عليهم، وتقام فصولها

في الفضاء لعدم إمكانية الحصول على مبنى يليق بمدرسة يؤمها أبناء المسلمين.

وهذا ليس ادعاء، ولكنه واقع يشهده كل من تتاح له الفرصة لزيارة هذه الأماكن، فيرى الفرق بين هذا الأسلوب وذاك. هذا بالإضافة إلى وسائل الإعلام هناك، والتي تعمد إلى تشويه الإسلام ونشر الأكاذيب حوله «عبر العديد من الإذاعات الموجهة للسكان الأفارقة».

ومما يبعث على الأمل ويدعو إلى الارتياح وجود مجموعة من الرجال المتطوعين الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية المساهمة العملية في الوقوف في وجه التنصير عملياً فأنشأوا «لجنة مسلمي إفريقيا» وذلك عام ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م. وتبلغ ميزانية هذه اللجنة اليوم (٥,٥) مليون دولار «فقط» جمعها الرجال هؤلاء من أهل الخير في منطقة الخليج العربية. وهذه اللجنة تشرف بميزانيتها المذكورة على(٤٥) مستشفى و(٢٧١) مستوصفا و(٣٥) مركز إغاثة وتتكفل بتعليم (٤٥) ألف طفل في ملاوي، «وترعى العديد من معاهد تخريج الدعاة والمعلمين، بالإضافة إلى طبع ملايين النسخ من القرآن الكريم والكتيبات التعريفية، كما أن هذه اللجنة تكفل اليوم ما يزيد عن (٢٢٠٠) طفل من يتامى المسلمين» كما ورد ذلك في العدد المذكور آنفاً. وهذا حقاً يعتبر وثبة إيجابية على أيدي هؤلاء الرجال، يحتاجون معه إلى مزيد من الدعم والتشجيع وتذليل العقبات على مختلف المستويات الأهلية والحكومية.

والذي يبدو من هذه المجموعة من الرجال أنها ليست بحاجة إلى الإطراء، فهي تعمل ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ لوجه الله، ولكنها لا تستغني بحال عن الدعاية لها، قصداً إلى توسيع رقعة المساعدات التي تصلها وقصداً إلى تمكينها بعون من الله من تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة، فهي فيما يبدو من طموحها مجموعة لا تزيد أن تتوقف عند

ميزانية لا تتجاوز الخمسة ملايين ونصف المليون دولار، ولعل هذا المبلغ يتحول قريباً ليكون ميزانية مرفق واحد من المرافق التي يقوم بها هؤلاء الرجال، كأن تكون ميزانية إذاعة إسلامية تنشر النور في أرض يكاد أن يعمها الظلام.

وفي مثل لجنة مسلمي إفريقيا، ومركزها الكويت، فرصة لأهل الخير أن يساهموا في مثل هذه الأعمال النبيلة التي تعود عليهم بالخير الجزيل، دنيا وآخرة، وما نقص مال من صدقة.

المسلمون، العدد ٨٥

الموافق في ١٦/١/١٤٠٧ هـ - ٢٠/٨/١٩٨٦